AYAAT ILM ACADEMY
أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية

المستوى الأساسي

منهج

السيرة والتاريخ

الفصل الدراسي الأول

سير ١٥١

تأليف

د. عماد حسين

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر

الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

منهج السيرة والتاريخ

أولاً :

قصص الأنبياء

Ayat Academy

قصص الأنبياء

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قَصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ليعتبر ويتعظ بها الناس، لما فيها من الدروس والعِظات، فهي قَصصٌ ثابتةٌ وقعت في مَعرض دعوة الأنبياء لأقوامهم، فزخرت بالدروس التي تُبيّن المنهج القويم، والسبيل الرشيد في الدعوة إلى الله، وبما يُحقق صلاح العباد، وسعادتهم، ونجاتهم في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: }لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلـكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ {(يوسف: 111).

عند تمعُّن الإنسان في سير الأنبياء والمرسلين، يجد أن هؤلاء الأنبياء هم من أضاءوا طريق الهداية للإنسان، فهم من اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليبلِّغوا رسالته، ويظهروها للناس والأقوام كلٌّ بحسب من بُعث له، وقد كان آخر الأنبياء والمرسلين هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، حيث بلَّغ دعوته بكل أمانة وصدق، وبلَّغ القرآن الكريم، كما يُعدُّ الإيمان بالأنبياء والرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، لذلك وجب على المؤمن الإيمان بهم، وإلا كان من الجاحدين، فالإيمان بهم سببٌ لسكينة نفس الإنسان، وطمأنينة قلبه، وصلاح حياته الدنيوية والأخروية.

وقد أوجب الشرع الكريم على المسلم حقوقا، عليه أن يؤديها تجاه أنبياء الله ورسله، قياماً بما أمر الله به من تعظيمهم وتوقيرهم، واعترافاً بما فضلهم به على سائر الخلق، من تبليغ رسالته وتبيين دينه.

فمن تلك الحقوق: الإيمان بهم جميعاً، وعدم التفريق بينهم، بأن يُؤمن ببعض ويُكفر ببعض كحال النصارى الذي آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد، أو كحال اليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} (البقرة:136).

ومن الحقوق المتعينة على المسلم تجاه أنبياء الله ورسله النظر إليهم بعين الكمال؛ فلا يجوز للمسلم أن ينتقص واحدا من الأنبياء، بل يجب أن يعتقد أنهم أدوا رسالة الله على أكمل وجه، وأنهم بلغوا درجة الكمال البشري، فلا نقص يعيبهم، ولا عيب يشينهم، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوا بين أنبياء الله) متفق عليه، وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك لئلا يتوصل بالتفاضل بين الأنبياء إلى انتقاص أحد منهم.

ومن الحقوق المتعينة على المسلم تجاه أنبياء الله ورسله محبتهم جميعاً، وهذا أمر مجمع عليه، ومن أبغض نبياً من الأنبياء فقد كفر.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

وسوف نتعرض في السطور التالية لهذا الموضوع على قسمين وفق العناصر الآتية:

القسم الأول: مدخل إلى قصص الأنبياء:

- بين قصص الكتب المقدسة والتاريخ.
- الفرق بين النبي والرسول.
- من هم أولي العزم من الرسل.
- خصائص النبي.
- ما يجوز وما لا يجوز في حقه.
- أول من كتب في هذا الموضوع من المسلمين.
- قصة الخلق بين المنطق الديني والمنطق اللاديني.

القسم الثاني: قصص الأنبياء:

- آدم.. أول الأنبياء وأبو البشر.
- قصة آدم.
- قصة أولاد آدم.
- نوح عليه السلام وقومه.
- هود عليه السلام وقومه.
- صالح عليه السلام وقومه.

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

القسم الأول: مدخل لقصص الأنبياء:

محاضرة 1

بين قصص الكتب المقدسة وعلم التاريخ:

أفاض القرآن الكريم، وكذلك الكتب السماوية السابقة عليه، ذكر ما تعرض له الرسل والأنبياء من اضطهاد، ورفض ومقاومة شديدة لرسالاتهم، ما أجبر معظمهم على الهجرة، واتخاذ مناطق جديدة، لانطلاق دعواتهم التوحيدية، وما نجم عن ذلك من تغير اجتماعي وسياسي وأخلاقي وأدبى كبير، ولذلك فإن ثوراتهم الإصلاحية الشاملة، لا يمكن نكرانها.

ورغم هذا فإن الشواهد الأثرية والوثائق التاريخية للحضارات القديمة لم تذكر شيئا عن أي نبي، لدرجة أن عدداً من علماء الآثار في العراق، أصيبوا بحيرة من أمرهم، وتساءلوا لماذا لم نجد أي شاهد أثري عن تاريخ الأنبياء رغم القول بوجود ألف نبي؟

السؤال، من حيث الشكل والمضمون، وجيه، مع التأكيد على أن علم التاريخ وعلم الآثار مع علم الأنثروبولوجي هم مصدر المعلومات عن العصور القديمة؛ فالقول بعدم وجود معلومات أثرية عن تاريخ الأنبياء لا يعنى الجزم بعدم وجودهم، نظرا لإمكانية معرفة تاريخهم من مصادر أُخرى، وهنا تظهر مشكلة منهج البحث العلمي الحديث سواء في علم التاريخ أو فيما سبق ذكره من علوم (في ظل الثورة والرفض للمؤسسة الدينية في الغرب لظروف تاريخية ليس هنا مجال التفصيل فيها ولكن برزت بشكل واضح في الثورة الفرنسية وهتافها أعدموا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) إذ نُظر إلى الكتب المقدسة على أنها لا تصح كمصدر للمعلومات التاريخية، وتم الاكتفاء بما يكون من مصادر تاريخية من حفريات أو وثائق أو متعلقات خاصة بالفترات التاريخية، ولهذا لن تجد في الكتب التاريخية المعاصرة ذكر للنبوات ودورها وقصصها، ولكن ستجد ذلك في تخصص موجود في بعض الجامعات تحت مسمى تاريخ الأديان، وسوف نعرض لهذا بشكل أكثر تفصيلا عند ذكر قصة الخلق.

حاول بعض علماء الآثار الجنوح إلى أن معظم المعلومات الواردة عن تاريخ الأمم، مسجلة على جدران المعابد والمقابر، والقصور في دول أخرى، كونها مبنية من الحجر، واستطاعت الصمود أمام عوامل التعرية، وغدر الطبيعة، وكانت منصات تتحدث بلسان الملوك والحكام، وتمجد بطولاتهم وإنجازاتهم، ولا تتطرق لأي معارضة، من أي نوع، وبما أن الأنبياء والرسل، قادة ثورات التصحيح، دينيا وأخلاقيا واجتماعيا وسياسيا وأدبيا، فبالطبع لا يمكن أن تذكرهم الشواهد الأثرية والوثائق التاريخية.

وعلى النقيض، فإن منازل وأماكن عبادة عامة الشعب التي كان يمكن من خلالها التعرف على وجهة نظرهم في الحكم وأنظمة الحكم، وتاريخ الأنبياء والرسل، كانت مبنية من مواد، لا تصمد أمام غدر الطبيعة، فاختفت، وأصبح التاريخ أسير لوجهة نظر واحدة، منحازة للملوك والحكام، ومتحدثة عن الإنجازات والبطولات وقهر الأعداء الأجانب.

ومن بين الأسباب أيضا التي ساقها علماء الأديان، وبعض علماء الآثار، عن سر عدم وجود شاهد أثرى واحد يتحدث عن نبي من آلاف الأنبياء، أن التدوين في أغلب العصور السابقة لم يكن بالأمر الهين وكان يتطلب إمكانيات كبيرة لم تكن متوفرة للجميع، فالكتابة باستخدام الألواح الطينية، وورق البردى وعلى جدران المعابد والمقابر ومختلف الشواهد الأثرية، لم يكن أمراً متوفراً للجميع، ولا تتوافر إلا للملوك والحكام والأمراء فقط، بالإضافة إلى أن الأنبياء أصحاب رسالة إصلاحية، فلم يكن من بين اهتماماتهم، التدوين وترك الآثار المادية التي تسرد تاريخهم، وذلك لأسباب، كثيرة أهمها تعليم الناس الزهد وتجنيب الناس التعلق بالآثار دون التعلق بالفكرة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

كما عزا علماء الأديان الأسباب أيضا، إلى أن الأنبياء صاروا أنبياء عند مريديهم ومن اقتنع برسالتهم، وليس كذلك عند معارضيهم الذين يظهرونهم في صورة المعارضين والخارجين عن نواميس الأمة، دينيا وسياسيا، فاتهموهم بأنهم سحرة، تارة، وكهنة، تارة ثانية، والباحثون عن السلطة عن طريق التمرد، تارة ثالثة، وغيرها من الصفات الرديئة التي نعتوا بها الأنبياء.

ومن ثم ننتهي إلى أن مصدر المعلومات عن قصة النبوات هو القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما جاء بهما واجب الإيمان به، ثم تأتي من الكتب السابقة بعض التفاصيل حولهم، دون أن نصدق أو نكذب أي منها، وقد وضع علماء الإسلام قواعد لما نستطيع قبوله، ومالا يصح قبوله في حق الأنبياء مما سجلته كتب السابقين، فالمسلم منفتح على كل الأديان والكتب السابقة، ولكن وفق ميزان دقيق، وقواعد محكمة، فالأمر يتعلق بالمبلغين عن رب العالمين.

والجدير بالذكر في هذا الموضوع أن الرسول الوحيد الذي يخرج من الكلام السابق ويدخل في باب التاريخ الموثق هو محمد بن عبد الله عليه الصلاة و السلام، ليس ذلك من باب العصبية (رغم أن هذا لا يعيبنا) ولكن ثبوت بعثته ووجوده عليه من الأدلة ما لاشك فيه، فما زال لدى المسلمين عباءته ونعله وسيفه، بل وشعرات من لحيته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

تعريف النبي والرسول:

تعريف النبي في اللغة:

مشتق من النبأ، وهو الخبر؛ قال تعالى: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ النبأ: 1-2.

وإنما سُمي النبي نبيًّا لأنَّه مُنبَأ؛ أي: مُخْبَر من الله عزَّ وجلَّ أي: يُوحِي الله إليه نبأً من شَرعِه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ التحريم: 3، وهو أيضًا مُنْبِئٌ؛ أي: مُخبِر عن الله عزَّ وجلَّ بما يُوحِيه الله إليه من أمره وشرعه؛ قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الحجر: 49.

وقيل: النبي مشتق من النَّبْوَة، وهي الشرف؛ أي: المكان المرتفِع من الأرض، فمُرتفعات الأرض أشرافُها، فإنَّ العرب تُطلِق لفظ (النبيّ) على العَلَمِ من أعلام الأرض التي يُهتدَى بها؛ لشرفها وإشرافها على ما سواها.

فالرَّبط بين لفظ النبي والمعنى اللغوي واضحٌ؛ وذلك لأنَّ النبي ذو رفعةٍ عند الله تعالى في الدُّنيا والآخِرة، وذو شَرَفٍ وسُؤدُد في قَومِه، وهو مُنبَّأٌ من الله تعالى بأمره الديني الشرعي الذي يهتَدِي به العباد ويسعَدُوا في دُنياهم وأُخراهم، وهو يُنبئهم بذلك؛ أي: يُخبرهم به.

تعريف النبيُّ في الاصطلاح:

إنسانٌ حرٌّ أُوحِي إليه بشرعٍ، وبُعِث إلى قومٍ مؤمنين بشرعٍ سابق؛ فهو الذي ينبئه الله تعالى أي: يوحي إليه أنْ يعمل بشريعة مَن قبله، ويبعثه الله إلى قومٍ مؤمنين بشريعةٍ سابقة ليُذكِّرهم ما نسوه، وليُبطِل ما ابتدَعُوه، ويُصحِّح ما أخطؤوا فيه، ويحكُم بينهم فيما اختلفوا فيه، ويكون قُدوةً لهم في اتِّباع الرسول السابق، فهو يحكُم بشريعة مَن قبله، ولا ينزل عليه كتابٌ، وقد يُوحَى إليه وحيٌ خاص في واقعة مُعيَّنة.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأتيهم وحيٌ من الله تعالى فيما يفعَلُونه ويأمرون به المؤمنين بهم، لكنَّ لا ينزل عليهم كتابٌ ولا يُرسَلون إلى قومٍ لم تبلغهم رسالةٌ سابقة، ولا إلى كفَّارٍ مُخالِفين لأمر الله؛

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ليُبلِّغوهم رسالةً من الله إليهم، إنما يُرسَلون إلى قومٍ مُوافِقين مخطئين في بعض الأمور، أو يُخلَفون من المرسلين في أقوامهم؛ كما خلف شيث عليه السلام أباه أدم عليه السلام في ذريَّته، وكما خلف إسحاق أباه إبراهيم عليه السلام في أهله وقومه من بعده.

تعريف الرسول في اللغة:

مأخوذٌ من البعث وهو الإرسال والتوجيه؛ فالرسول هو المبعوث المُوجَّه برسالة؛ قال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ النمل: 35.

فالرُّسلُ عليهم الصلاة والسلام إنما سُمُّوا رسلاً لأنهم بُعثوا من قِبَلِ الله تعالى برسالةٍ حملوها وأُمِروا بتبليغها للناس؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ النحل: 36، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ المؤمنون: 44؛ أي: بعثناهم يتبع بعضهم بعضًا.

تعريف الرسول في الاصطلاح:

إنسان حرٌّ أُوحِي إليه بشرعٍ وأُمِر بتبليغه لقومٍ كافرين، أو لم تبلغهم رسالةٌ سابقة، فهو الذي ينبئه الله بوحيه الشرعي ثم يُوجِّهه إلى مَن خالَف أمرَه، أو على قومٍ لم يأتهم نذيرٌ من قبله.

وتجدر الإشارة أن أهل العلم أقروا أن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء، لأنه خلق بيد الله، وكلمه الله وعلمه.[1]

كما ورد عن أبي ذر -رضي الله عنه- أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول، قال رسول الله: (آدم)، قلت: نبي كان؟ قال: (نعم نبي مكلم)، ثم قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: (مائة ألف وأربعة عشرين ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً).[2]

وقد ورد في القرآن الكريم أسماء خمس وعشرين منهم، وهم:

آدم -عليه السلام-، إدريس -عليه السلام-، نوح -عليه السلام-، هود -عليه السلام-، صالح -عليه السلام-، إبراهيم -عليه السلام-، لوط -عليه السلام-، إسماعيل -عليه السلام-، إسحاق -عليه السلام-، يعقوب -عليه السلام-، يوسف -عليه السلام-، شعيب -عليه السلام-، أيوب -عليه السلام-، ذو الكفل -عليه السلام-، موسى -عليه السلام-، هارون -عليه السلام-، داود -عليه السلام-، سليمان -عليه السلام-، إلياس -عليه السلام-، اليسع -عليه السلام-، يونس -عليه السلام-، زكريا -عليه السلام-، يحيى -عليه السلام-، عيسى -عليه السلام-، محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ويذهب العلماء أن هناك من ورد ذكره في كتاب الله دون ذكر اسمه، مثل العبد الصالح في سورة الكهف، والملك الذي بنى السد حول يأجوج ومأجوج؛ فقد ورد أنهم يتلقون عن الله، ما يجعلهم في درجة الأنبياء.[3]

[1] الشيخ عبد الله القصير (25-6-2016)، "تعريف النبي والرسول"، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ 10-08-2020.بتصرّف.
[2] رواه أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك وابن حبان في صحيحه.
[3] "قائمة الأنبياء"، www.marefa.org، اطّلع عليه بتاريخ 2020/08/18. بتصرّف.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

أولو العزم من الرسل:

كل الأنبياء عند المسلمين من أفضل الخلق، ولكن ورد في كتاب الله أنه سبحانه وتعالى قد فضل بعض رسله على بعض، كما قال عز وجل: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) البقرة: 253.

معنى أولي العزم لغةً:

يرجع أصل كلمة العزم لغةً إلى القصد وعقد النية القلبية على فعل الشيء وإدراك الهدف والغاية، لذلك يُقال للرجل صاحب الهمّة والنّشاط والذي يسعى إلى تحقيق هدفه: صاحب عزيمة، وثابت العَزْم: الحازم.[4]

أولو العزم اصطلاحاً:

هم الأنبياء والرسل الذين صبروا في سبيل الدعوة التي بعثهم الله بها أكثر من غيرهم من الأنبياء والرسل، وجدُّوا في سبيل ذلك لإعلاء كلمة الله ولإنجاح دعوتهم،[5] وقد اعتبر كثيرٌ من العلماء أنبياء الله ورسله جميعهم أصحاب عزيمة وهمّه في سبيل الدّعوة والتّبليغ، ولكن هناك عددٌ من هؤلاء الرّسل والأنبياء تميزوا عن باقي الأنبياء والرسل، فاجتباهم الله تعالى وميَّزهم عن غيرهم، وحقيقة التفضيل هذه ذكرها الله -سبحانه وتعالى- في كتابه حين قال جل من قائل: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّـهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ..) البقرة- 253.

أولو العزم وعددهم:

يرى العلماء أن عدد أولي العزم من الرسل والأنبياء هم خمسةٌ فقط، وهم أكثر الأنبياء معاناةً مع أقوامهم وصبراً على أذاهم، وما تبوَّؤا تلك الدرجة وما استحقوا تلك الصفة إلا بسبب ما قدَّموه وما بذلوه وما تحملوه من أقوامهم من الأذى والتعذيب والصدِّ عن دين الله، ومنعهم من إيصال دعوتهم للناس، وتبليغها كما أمرهم الله سبحانه وتعالى،[6] وقد ذكرهم العلماء بالتفصيل، وبيَّنوا مراتبهم وهم: خاتم النبيين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأنبياء الله نوح، وموسى، وإبراهيم، وعيسى عليهم أفضل الصلاة والتسليم، وقد جاء ذكر هؤلاء الأنبياء تحديداً في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) الأحزاب- 7.

أما ترتيبهم من حيث الأفضلية فقد اختلف العلماء في ذلك على ما يلي: قيل إن أفضل أولي العزم من الأنبياء والرسل هو محمد -صلى الله عليه وسلم- بإجماع الأمة، ثم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ثم اختلف العلماء في ترتيب الأنبياء الثلاثة -عليهم السلام- من حيث الدرجة، وقيل إن أفضل الأنبياء والمرسلين وأولي العزم إطلاقاً هو سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- اتفاقاً، ثم إبراهيم ثم موسى عليهما السلام، واختلفوا في التفضيل بين نوح وعيسى عليهما السلام.[7]

[4] تعريف ومعنى عزم في معجم المعاني الجامع"، معجم المعاني الجامع، اطّلع عليه بتاريخ 2020/08/18. بتصرّف.
[5] أولوا العزم من الرسل وسبب تسميتهم بذلك"، إسلام ويب، 25-1-2003، اطّلع عليه بتاريخ 2020/08/18 بتصرف.
[6] المصدر السابق.
[7] ترتيب أولي العزم من الرسل حسب الأفضلية"، إسلام ويب، 29-1-2015، اطّلع عليه بتاريخ 2020/08/18. بتصرّف.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

المناقشة:

- في ضوء ما درست ما يجتمع فيه النبي والرسول، وما الذي يفترقان فيه؟
- لماذا أرسل الله الرسل إلى البشر؟

محاضرة 2:

خصائص مقام النبوة:

يمكن اعتبار أن هذه الخصائص والصفات هي قواعد قبول ورفض أي قصص يرد في الكتب الأخرى عن الأنبياء، فما يوافقها نقبله، وما يعارضها أو يخالفها نرفضه.

أولا: ما قبل البعثة:

1. طهارة النسب.
2. الصدق.
3. الفطنة.
4. السلامة من العيوب.

ثانيا: ما بعد البعثة:

أولاً: الوحي الإلهي:

الله تعالى بعث الأنبياء لهداية الإنسان للكمال والسعادة الحقيقية من خلال وضع المعارف والقوانين التي يحتاجون إليها بين أيديهم، فيكمُل من خلال ذلك المدركات العقلية، وأساساً يعدّ إبلاغ التعاليم الدينية للبشر أهم وظائف الأنبياء، وبديهي أن هذا الإبلاغ مسبوق بمعرفة شخص النبي بهذه التعاليم، فبادئ ذي بدء يجب وقوف النبي على هذه المعارف ومن ثَم يقوم بإبلاغها للناس، والسؤال المطروح هنا: ما هو منبع ومصدر هذه المعارف؟

فهل يصل النبي من طريق الفكر الشخصي إلى المعارف التي يؤمَر بإبلاغها أم أنّه يصل إليها من طريق التعليم والمطالعة في آثار المتقدمين؟ الحق أن كلا هذين الطريقين أو غيرها من طرق المعرفة البشرية (الحس، التجربة، العقل) ليست هي مصدر معارف النبوة، فالأنبياء لا يستفيدون من أساليب الفكر المعروفة للحصول على هذه المعارف بل مبدأ تعاليم الأنبياء هو إدراك خاص يُعرف بالوحي، وهذا الإدراك الخاص هو أهم خصائصهم.

تعريف الوحي:

التعريف اللغوي:

الوحي في اللغة هو الإعلام السريع الخفي.

ويطلق الوحي على: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام. وكل ما ألقيته على غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان وهو لا يختص بالأنبياء ولا بكونه من عند الله تعالى.

والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

1- الإلهام الفطري للإنسان كالوحي لأم موسى. قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} القصص: 7.

2- الإلهام الغريزي للحيوان كالوحي إلى النحل. قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا} النحل: 68.

3- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا لقومه. قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} مريم: 11.

4- وسوسة الشيطان وتزيين الشر في نفوس أوليائه. قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} الأنعام : 121.

5- ما يلقيه الله تعالى إلى ملائكته من أمر ليفعلوه. قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} الأنفال : 12.

التعريف الشرعي: هو "إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة".

أنواع الوحي:

لتلقي الوحي من الله تعالى طرق بينها الله تعالى بقوله في سورة الشورى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} الشورى: 51.

فأخبر الله تعالى أن تكليمه ووحيه للبشر يقع على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: الوحي المجرد وهو ما يقذفه الله في قلب الموحى إليه مما أراد بحيث لا يشك فيه أنه من الله. ودليله قوله تعالى: {إِلَّا وَحْيًا} الشورى: 51. ومثال ذلك ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)[8].

وألحق بعض أهل العلم بهذا القسم رؤى الأنبياء في المنام كرؤيا إبراهيم عليه السلام على ما أخبر الله عنه في قوله: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} الصافات: 102.

وكرؤى النبي -صلى الله عليه وسلم- في بداية البعثة على ما روى الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح".[9]

المرتبة الثانية: التكليم من وراء حجاب بلا واسطة كما ثبت ذلك لبعض الرسل والأنبياء كتكليم الله تعالى لموسى على ما أخبر الله به في أكثر من موضع من كتابه. قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (النساء: 164)، وقال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} (الأعراف:143)، وكتكليم الله لآدم. قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} (البقرة:37). وكتكليم الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء على ما هو ثابت في السنة. ودليل هذه المرتبة من الآية قوله تعالى: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} (الشورى:51).

[8] أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وابن ماجه في سننه وغيرهم.
[9] متفق عليه

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

المرتبة الثالثة: الوحي بواسطة الملك. ودليله قوله تعالى: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} (الشورى:51)، وهذا كنزول جبريل عليه السلام بالوحي من الله على الأنبياء والرسل.

والقرآن كله نزل بهذه الطريقة تكلم الله به، وسمعه جبريل عليه السلام من الله عز وجل، وبلغه جبريل لمحمد -صلى الله عليه وسلم-. قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ () نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} (الشعراء:192- 194). وقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} (النحل:102).[10]

ثانيا: العصمة:

اتفقت كلمة المسلمين على جعل عصمة أنبياء الله تعالى كمبدأ وعقيدة من صلب الإسلام، ولكن حدودها هو ما كان محل خلاف بين بعض العلماء، ولذا الأمر يحتاج شيء من التفصيل.

معنى العصمة في اللغة والاصطلاح:

وهي لغة تعني المنع والمنعة والامتناع بالشيء واللجوء إليه، والتمسك والاستمساك والاحتماء به، وملازمته بعد طلبه وتحريه، كل ذلك إباء أو امتناعاً منعة وحفظاً للنفس من الوقوع في المحذور، كالغرق والجوع والمعصية والسقوط من الفرس والراحلة والضياع والابتلاء والفاحشة وغيرها من مفردات الشر التي تؤلم الشخص وتؤذيه.

هذا من طرف الشخص الطالب للعصمة وهو المعصوم أو المعتصم والمستعصم، وأما الشيء العاصم: فهو المدافع والمانع والمحامي والحافظ والموجب لعدم الوقوع في الشر والمحذور الذي يأباه الشخص المعصوم ويلتجئ بسببه إلى المانع والمحامي، ويتمسك ويستمسك به طلباً للحماية والوقاية.

والعصمة الاعتصام بالله تعالى وهو اللجوء إلى لطفه سبحانه وتوفيقه، حيث يُهيأ تعالى بلطفه وتوفيقه ما يحفظ الشخص عن الشر وعن الوقوع في المعاصي والفواحش، هذا ما عليه علماء اللغة.

وأما في الاصطلاح فالمشهور أنها لطف من الله بنفوس الأنبياء فلا تترك طاعة، ولا تنجذب لمعصية مع القدرة عليها، وقيل هي ألا يخلق الله فيهم ذنباً، وقيل العصمة هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها.

ب ـ أنواع العصمة

إن عصمة الأنبياء على أقسام: الأول العصمة عن المعصية أي مخالفة الأوامر والنواهي الإلهية (الواجبات والمحرمات)، الثاني: العصمة عن الخطأ والنسيان في تلقي الوحي وتبليغه، الثالث العصمة عن الخطأ والنسيان في إجراء الأحكام الإلهية والقيام بالأعمال الفردية والاجتماعية (السهو).

اتفقت الأمة على أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يتعلق بتبليغ الوحي، فلا يكذبون، ولا ينسون، ولا يغفلون، وقد تنوعت الدلائل الشرعية على إثبات ذلك في حق نبينا صلى الله عليه

[10] بليل عبد الكريم (2009/11/2): مفهوم الوحي https://www.alukah.net/sharia/0/8045lti,l، الاطلاع بتاريخ 2020/08/15، بتصرف.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وسلم -ومثله سائر الأنبياء -من تلك الدلائل ما وعد الله به نبيه من عصمته من النسيان، قال تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} الأعلى: 6 ومنها تزكية الله له من جهة البلاغ عنه، قال تعالى: {وما ينطق عن الهوى () إن هو إلا وحي يوحى} النجم: 3-4.

هذا فيما يتعلق بحال الأنبياء في تبليغ الوحي أما ما سوى ذلك من أحوالهم، فمذهب السلف على أن الرسل بشر، يعتريهم ما يعتري سائر البشر من العوارض والأمراض، إلا أن الله عصمهم من كبائر الذنوب، والصغائر التي تدل على خساسة الطبع، صيانة لعلو مكانتهم.

وأما صغائر الذنوب التي لا تدل على خساسة قدر، وضعة منزلة، فمذهب السلف جواز وقوعها من الأنبياء، إلا أن الله لا يقرهم عليها بل سرعان ما ينزل الوحي مصححا وهاديا، وقد ذكر الله لنا بعضا مما وقع من أنبيائه، مما عاتبهم عليه وأرشدهم فيه -

من ذلك قوله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم: {عبس وتولى () أَن جاءه الأعمى} عبس: 1-2. وذلك أن عبد الله بن أم مكتوم أتى النبي يستهديه، فأعرض النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه، لانشغاله بدعوة سادات قريش، فنزل عتاب الله جل وعلا لنبيه -صلى الله عليه وسلم-.

ومن ذلك عتاب الله لنبيه في قبول الفدية عن أسرى المشركين قال تعالى: {وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} الأنفال: 67.

وذكرت السنة نماذج أخرى فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه- وسلم قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه فهلا نملة واحدة)[11].

فهذا بعض ما ورد في الكتاب والسنة مما يثبت جواز وقوع الخطأ في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع التأكيد أن ذلك غير قادح في وجوب الاقتداء بهم كما قال تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدهْ} الأنعام:90، ذلك أن الله لا يقرهم على خطأهم بل ينزل الوحي هاديا ومرشدا.

أما الحكمة من جواز وقوع الخطأ اليسير منهم فذلك من رحمة الله بهم، حيث لم يحرمهم من أعظم العبادات وأحبها إليه سبحانه وهي التوبة والإنابة، وقد وصف الله خليله إبراهيم بأنه: {لحليم أواه منيب} هود: 75، وقال صلى الله عليه وسلم: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[12].

والعصمة كما اتفق العلماء لا تثبت إلا للأنبياء، أما غيرهم من البشر فالخطأ في حقهم جائز، عظم هذا الخطأ أم صغر، قال صلى الله عليه وسلم: (كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون)[13]، فهذا النص عام لا يخرج منه إلا الأنبياء للأدلة التي ذكرناها، وحسب التفصيل الذي بيناه.

فهذا مجمل القول في عصمة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، وهي تدل على حكمة الله عز وجل، إذ عصم أنبياءه مما يقدح في أصل دعوتهم، أو في أخلاقهم، وأجاز وقوع الخطأ اليسير منهم، لئلا يحرمهم لذة الإنابة إليه سبحانه، والعصمة تدل أيضاً على تميز مقام النبوة، كونه مقام تشريع وهداية، فأبعد الله عنه الشبهات بعصمة صاحبه وصيانة مكانته.[14]

---

[11] رواه البخاري ومسلم.
[12] رواه البخاري.
[13] رواه ابن ماجة وحسنه الشيخ الألباني.
[14] عصمة الأنبياء(2003/7/23): https://www.islamweb.net/ar/article/13441/، تاريخ الاطلاع 2020/08/18.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

- المعجزات: وهي الإتيان بأمور يستحيل على البشر وفق الأسباب الطبيعية الإتيان بها، وللأمر تفاصيل ليس هنا محل الشرح لها، ولكن الغرض يكون إقناع الناس المعاصرين له بصدق النبي.
- هناك بعض الخصائص الأخرى، مثل أنهم تنام أعينهم ولكن لا تنام قلوبهم، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، وأنهم يدفنون حيث يموتون، وأنهم يخيرون عند الموت بين الاستمرار في الحياة الدنيا أو الموت، وأن ما تركوه من مال يكون صدقة.

أول من كتب في قصص الأنبياء:

عمل بعض العلماء على جمع أخبار السابقين على الرسالة المحمدية، وقد تداول المسلمون هذه الأخبار لحاجتهم لشرح ما ورد في القرآن الكريم، من قصص تاريخية، وشواهد، وأحوال جاهلية، وهي مملوءة بكثير من الخيال والأوهام، والمغالطات.

واعتُمد فيها على رواة من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، من أمثال كعب الأحبار (ت 32هـ/652م) وعُبَيد بن شريَّة (ت نحو 67هـ/686م)، و وهب بن مُنَبِّه (ت 114هـ/732م)، وعلى ما ورد في التوراة والإنجيل، ويبدو أنهما قد ترجما إلى العربية في أواخر القرن الأول للهجرة/ أوائل الثامن الميلادي، وبذلك دخل كثير من الإسرائيليات إلى التاريخ العربي القديم، وإلى علم التفسير، ولاسيما قصص الأنبياء. كما استُند فيها، إلى ما وصل المؤرخين الأُوَل من الشعر الجاهلي، ومن مدوّنات في كنائس الحيرة، ومن كتب مترجمة عن الفارسية، وقف عليها بعض النسّابة العرب، من أمثال محمد بن السائب الكلبي (ت 146هـ/763م) وابنه هشام بن محمد الكلبي (ت 204هـ/819م)، ومن الروايات عن أيام العرب التي عمل على تجميعها بعض العلماء في القرن الثاني الهجري، أمثال أبي عبيدة معمّر بن المثنى (-209هـ/-824م).

ويعد محمد بن إسحاق (ت 150هـ/767م) أول من كتب في هذا الميدان، وذلك في كتابه "المبدأ" أو "المبتدأ"، ولكن ابن هشام (ت 218هـ/833م) قد أهمل القسم الخاص بالأنبياء عندما نقل إلينا كتابه، ولم يتبقى إلا صفحات قليلة نقلها لنا ابن جرير الطبري (ت 234هـ/848م) في كتابه الضخم تاريخ الأمم والملوك.

وبعد ذلك جاء أبو رفاعة عمارة بن وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي (ت 289هـ/902م) في كتب "بدء الخلق وقصص الأنبياء"، ثم صار كتابة التاريخ تبدأ بقصة الخلق وقصص الأنبياء منذ ظهر كتاب محمد بن جرير الطبري الذي سبق الإشارة إليه، وفيه كتب تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى عصره، فنجد أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 345هـ/ 956م) يتبع نفس المنهج في كتبه "مروج الذهب"، وصار كل كتب التاريخ العام في العصور الإسلامية تبدأ بنفس البداية.[15]

قصة الخلق:

سنستعرض في هذه السطور قصة بدء وجود الإنسان، من خلال روايتين متوازيتين هما الوحي القرآني والنظريات اللادينية، كما سنتحدث عن نشأة الدين من منظور الروايتين، فرواية الوحي تؤكد أن الدين ملازم لخلق الإنسان الأول، بينما تبحث النظريات اللادينية في أدلة الأحافير والرسوم والتماثيل الأولى وتضع التفسيرات الاحتمالية لاعتقادها المسبق بأن العلم لا يؤمن سوى بما يراه، ما يعني استبعادها لمفهوم الوحي من الأساس.

[15] عماد الدين بن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق محمد عبد الواحد، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1988م، ط3، ص12

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

بداية واحدة وروايات متعددة

يمكن القول إن هناك ثلاث روايات رئيسة لقصة الوجود، ومن خلالها يتم تصنيف العديد من التيارات والتوجهات التي تحكم رؤيتنا لأنفسنا وللعالم، ومن ثم تصوغ معتقداتنا الوجودية، ونلخص هذه الروايات بما يلي:

1- الرواية العلمية: ونحن نرى أن هذه التسمية بحد ذاتها ترجمة خاطئة لمصطلح science اللاتيني الذي يُقصد به العلم المادي الخاضع لشروط التجربة، أما كلمة "العلم" فهي أوسع من قيود التجربة وحدود المادة. ويبحث أصحاب هذه الرؤية في الوجود المادي من خلال المعطيات التجريبية التي يُفترض أن تقترب قدر المستطاع من النزاهة الموضوعية والتجرد عن الذات، ولعل المشكلة الأبرز لدى هذه الرواية هي افتراض أصحابها المسبق بأن العالم محصور أصلا بالمادة وحدها، ومن ثم استبعاد ما هو غير مادي (الميتافيزيقيا) من دائرة الوجود ذاتها فضلا عن طردها من دائرة البحث، وهذا افتراض فلسفي منحاز لا يدعمه دليل علمي (تجريبي). ومع أنه يحق للعالم التجريبي إخضاع الكائنات الحية وكافة الموجودات المادية للتجربة بحثا عن أصولها وقصة نشوئها و"تطورها" (إن وُجد التطور)، فإن الافتراض بأن العالِم التجريبي قادر على تقديم أجوبة على الأسئلة الوجودية هو مجازفة غير مضمونة، لأن معطيات العلم التجريبي لا تسمح أصلا بالتعرض لما هو خارج عن دائرة الحس، ما يعني أن الأجوبة ستكون مادية حصرا، أما الاعتقاد بأن تلك الأجوبة هي وحدها الصحيحة فهو تحكّم مسبق وغير منطقي. ومنذ بداية العصر الحديث يُقدِم الكثير من العلماء التجريبيين على هذه المجازفة دون التفات إلى تناقضها المنطقي، لكن آخرين يقدمون نتائج أبحاثهم مشفوعة بنقاش فلسفي، مع أن لجوء العالِم التجريبي إلى الفلسفة لا يخرجه من ورطته بل يعقّدها، فهو يسمح لنفسه بدعم رؤيته "غير العلمية" برأي فلسفي بينما يرد على منتقديه في الوقت نفسه بأنه رجل علم وليس من شأنه افتراض وجود عوالم غيبية أصلا، وكأن عجز أدواته عن الخوض فيما هو خارج عن تخصصه يسمح له بتخطئة الرأي المنبثق عن ذلك العالَم الخارج عن تخصصه.

2- الرواية الفلسفية: ونقصد بها كل ما يستند إلى الرأي، دون أن يكون مدعوما بتجربة علمية ولا بوحي سماوي. وقد تكون هذه الرواية وسوسة من عالم الشياطين (أو آلهة الشر والكائنات الظلامية كما يفترض البعض) لتضليل البشر، أو أسطورة خرافية صاغها خيال أديب مبدع أو كاهن دجال، أو رواية زعم أحد المتصوفة الروحانيين أنه تلقاها من مصدر مفارق عن طريق الكشف (العرفان) والإلهام، أو قد تكون محاولة جادة من قبل فيلسوف لتقديم أجوبة منطقية على الأسئلة الوجودية بما يتوافق مع العقل والحس. وحتى في حال افتراضنا أن واضع هذه الفلسفة أو الأسطورة كان صادق النية؛ فإن المشكلة تكمن في أن سقف العقل البشري محدود أصلا بما هو دون العوالم المفارقة التي يبحث فيها، ما يعني أن نتائج البحث لن تبلغ اليقين لاستحالة التحقق، كما أن افتراض التلقي عن طريق الكشف مشفوع بنظريات فلسفية مسبقة، فنتائج هذا البحث لا يمكن أيضا التحقق من صحتها إلا بتجربة شخصية ما يبقيها في دائرة الذاتية.

3- رواية الوحي: ونقصد بها الوحي الصادق الصادر عن الإله الواحد الحق، وهي رواية لا تتناقض ابتداءً مع معطيات التجربة وقواعد العقل، ويمكن ثانيا التحقق من صحتها من خلال التجربة والعقل، وطالما أن صحتها ثبتت بهذين الشرطين فمن المنطقي التصديق أيضا بما ينص عليه ذاك الوحي من أنه السبيل الوحيد المؤدي إلى الحقيقة والخلاص، وسنؤجل في رحلتنا هذه التحقق من صحة هذه الرواية إلى المراحل الأخيرة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

بناء على كل ما سبق، سنعرض في هذه السطور قصتي ظهور الإنسان وظهور الدين، وسيكون عرضنا لكل منهما حسب روايتين متوازيتين، هما رواية العلم الحديث (وما يوافقه من الفلسفة المادية) ورواية الوحي.

أولاً: قصة الإنسان

الرواية الأولى: حسب العلم الحديث والفلسفة المادية

مع أن الإلحاد (جحود الخالق أو المصدر المفارق للكون) ليس نزعة حديثة؛ إلا أنه لم يحظ بالانتشار والتأصل إلا في العصر الحديث، وقد ارتبطت هذه النزعة بسقوط قدسية الدين المسيحي وبشيوع العلم التجريبي كمصدر للحقيقة ، وما يهمنا هنا هو ظهور نظرية النشوء والارتقاء والتطور مع نشر تشارلز داروين كتاب "أصل الأنواع" عام 1859، فمع أن النظرية لا تتعرض للخلق نفسه، إلا أنها قدمت للمرة الأولى مستندا "علميا" يمكن للملحد أن يحاجج به للتخلي عن الإيمان بوجود خالق، بينما كان الملحد قبل ذلك مضطرا للجوء إلى الأفكار الفلسفية، وهذا لتبرير وجود الكون بمصدر ما، الأمر الذي جعل الفلسفة والعلم والخرافة تتقاطع كثيرا في هذه الجزئية.

تشارلز داروين

وبعد داروين، أصبحت علوم التاريخ والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والإثنولوجيا (علم الأعراق) وغيرها تستند إلى مسلّمة (قاعدة) مفادها أن الإنسان تطور عن أسلاف غير عاقلة و"بدائية"، كما أصبح من مسلّمات الوسط العلمي أن أي رفض لنظرية التطور يعني بالضرورة اللجوء إلى نظرية الخلق (والتي باتت تسمى بالتصميم الذكي)، وذلك يفضي بحسب رأيهم إلى التخلي عن العلم والركون إلى الإيمان الديني، وهو أمر يرفضه الكثير من العلماء وغير المتخصصين في الغرب على السواء لأسباب تبدو لنا أنها نفسية.

وبحسب مخرجات نظرية التطور، تعود بداية قصة البشر إلى مخلوق بدائي عاش قبل 2.8 مليون سنة في شرق أفريقيا، وقد سُمي بالإنسان الماهر "هومو هابيليس"، ويُعتقد أنه تطور في سلسلة متصلة كان آخرها ظهور الإنسان العاقل "هومو سابينز" الذي يشبهنا قبل 200 ألف سنة.

ولن نخوض هنا في مناقشة نظرية التطور التي تتعرض منذ ظهورها لانتقادات حادة، ولا لمصداقية افتراض أن البقايا العظمية المكتشفة لتلك المخلوقات هي بالفعل تعود لأسلاف البشر، فالرسوم التي يقدمها العلماء لتخيل شكل الكائنات التي تعود لبعض العظام المكتشفة تتنوع بين خيارات كثيرة، كما أن بعضها يمكن أن يكون عائدا إلى كائن بشري يشبهنا تماما دون الحجة لافتراض أنه كان يشبه القردة ومكسوا بالشعر كما يرسمه التطوريون، فهذه التصورات مازالت مجرد افتراضات لتقديم أجوبة علمية على أصل الإنسان مع اتخاذ قرار مسبق بأنه لم يُخلق على هيئة كاملة دفعة واحدة ثم توالد أبناؤه من بعده.

هذا على صعيد بقايا الهياكل العظمية، أما الآثار البشرية فيُعتقد أن أقدم ما تم اكتشافه منها حتى اليوم هو كتلتان حجريتان نُقشت عليهما خطوط هندسية، وقد عُثر عليهما في كهف بولومبُس بجنوب أفريقيا، ويعتقد أن عمرهما 77 ألف سنة (كما سيأتي لاحقاً)، مع أنه لا يمكن الجزم بصحة هذا التقدير.

وتواجه دراسة الأحافير وبقايا الكائنات الحية، وكذلك دراسة آثار البشر المرسومة والمنحوتة، صعوبات جمة يغفل عنها غير المتخصصين، فقياس عمرها يعتمد أساسا على اختبار الكربون المشع، ويعتقد الكثيرون أن هذا القياس يعطي نتائج دقيقة، ولا يدور في خلد القارئ غير المتخصص أن تلك النتائج المنشورة في المجلات العلمية المتخصصة عن أعمار الديناصورات وما يسمى بأسلاف البشر ليست دقيقة، لكن الحقيقة هي أن هناك أبحاثا كثيرة تؤكد أن قياس المواد المشعة في بقايا الكائنات الحية يختلط سهوا أو

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

عمدا بقياس المادة المشعة للصخور والمعادن التي تحجرت فيها تلك الكائنات، فيصبح من الصعب الفصل بين عمر الديناصور وعمر الصخرة التي تحجرت عظامه فيها.

هناك أبحاث تم تقديمها على مدى عقود للتشكيك في الفكرة الشائعة عالميا عن أن الديناصورات انقرضت قبل عشرات ملايين السنين وأن الإنسان العاقل تطور لاحقا وكان ظهوره الأول قبل مئتي ألف سنة، لكن الجيولوجي الأمريكي "مايكل كريمو" ظهر في عدة لقاءات تلفزيونية خلال أربعينيات القرن الماضي متحدثا عن اكتشافاته التي تثبت العكس، وعن القمع الفكري الذي تعرض له من خلال الوسط الأكاديمي الذي يرفض أي مساس بنظرية داروين التطورية ومسلماتها.

ومنذ مطلع التسعينيات، حاولت الجيولوجية الأمريكية ماري شفايتزر جاهدة لإقناع العلماء بنتائج أبحاثها التي تثبت أن عظام الديناصورات التي وجدتها في حالة جيدة (ولاتزال تتضمن مواد عضوية غير متحللة) لا يمكن أن تعود إلى 65 مليون سنة، لكن المجتمع العلمي لم يبدأ بتقبل أفكارها إلا في السنوات الأخيرة، مثل مجلة "نيتشر" العلمية التي كتبت عن أبحاثها مقالا في أكتوبر 2012، وفي العام نفسه قدم الباحثان ماري كلير فان أوسترويتش وجان دي بونتشارا بحثا في مؤتمر بسنغافورة يؤكد أن بعض عظام الديناصورات لا يزيد عمرها عن 40 ألف سنة فقط، فسارع أعضاء المؤتمر إلى رفض البحث بحجة تعارضه مع المعطيات المتفق عليها في المجتمع العلمي.

إذن لم يصل العلم حتى الآن إلى جواب حاسم بشأن تاريخ أسلافنا الأوائل، وبغض النظر عن مناقشة مبدأ التطور نفسه، فإن مجرد افتراض أن أول البشر عاش قبل 200 ألف سنة هو قول غير مؤكد.

المناقشة:

- في تقديرك ما هي أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها النبي؟
- تنتشر قصص كثيرة حول الأنبياء، فكيف نميز بين الصحيح والكاذب منها؟
- ما تقديرك للمنهج اللاديني فيما يتعلق بالأنبياء؟

القسم الثاني: قصص الأنبياء:

الرواية الثانية: قصة الخلق حسب الوحي:

خلق الله الأرض في يومين، وجعل فيها رواسِي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها ([16]) في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دُخان، {فقال لها ولِلْأَرْضِ ائْتِيا طوْعًا أوْ كرْهًا قالتا أتيْنا طائِعِين} (فصلت:11).

ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، ثم خلق ملائكته الذين يسبّحون بحمده، ويقدسون اسمه، ويخلصون في عبادته.

ثم شاءت إرادته، واقتضت حكمته، أن يخلق آدم وذريته، ليسكنوا الأرض ويعمروهما؛ فأنبأ ملائكته أنه سينشئ خلقًا آخر، يسعون في الأرض، ويمشون في مناكبها، وينتشر نسلهم في أرجائها، فيأكلون من نبتها، ويستخرجون الخيرات من باطنها، ويخلف بعضهم بعضًا فيها.

[16]() أرزاق أهلها ومعايشهم. وما يصلحهم.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

والملائكة خلقٌ اصطفاهم لعبادته، وأسبغ عليهم نعمته، وحباهم بفضله، ووفقهم إلى رضاه، وهداهم إلى طاعته، ساءهم أن يخلق الله خلقًا غيرهم، وخافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفة كانت من أحدهم، فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف تخلق غيرنا، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك، وتقديس اسمك، على أن هؤلاء الذين تستخلفهم في الأرض لا بد أن يختلفوا على ما فيها من منافع، ويتجاذبوا ما بها من خيرات، فيفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء غزيرة، ويزهقوا الأرواح طاهرة بريئة.

لا يكشف القرآن عن تفاصيل كثيرة بشأن المرحلة السابقة لوجود الإنسان، فما يذكره هو أن الله خاطب الملائكة بقوله: {إني خالق بشرا من طين () فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} ص: 71- 72، وفي سورة أخرى نقرأ أن الله أخبرهم أن البشر سيكون خليفة، وهناك خلاف بين المفسرين بين من قال إن البشر خليفة لله في الأرض ومن قال إنه يعني أن الناس سيخلف بعضهم بعضا، وقد أجابت الملائكة بقولها: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون} البقرة: 30، واختلف المفسرون أيضا في سبب تنبؤ الملائكة بذلك، ولعل أهم الأقوال أنهم علموا ذلك بإعلام الله تعالى لهم وإن كان ذلك لم يذكر في السياق، أو أنهم قاسوه على أحوال الجن الذين ربما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء قبل وجود آدم.

قد ذكر اسم آدم في القرآن الكريم خمسًا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية وهاكم الآيات التي ذكر فيها:

رقم السورة	السورة	الآيات
2	البقرة	31، 33،34، 35،37
3	آل عمران	33،59
5	المائدة	27
7	الأعراف	11، 19، 26،27، 31،31، 35، 172
17	الإسراء	61، 70
18	الكهف	50
19	مريم	58
20	طه	115، 116، 117، 120، 121
36	يس	60

أول من قص الله تعالى علينا قصصهم في القرآن الكريم من الأنبياء آدم أبو البشر عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت قصته في سورة البقرة وفي سورة الأعراف وفي سورة الإسراء وفي سورة الكهف وفي سورة طه باسمه وصفته وفي سورة الحجر وفي سورة ص بصفته فقط وكلها بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط. وذلك ما يدل على إعجاز القرآن الكريم فإن أكتب الكاتبين وأبلغ

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المتانة في الأسلوب والبلاغة في التعبير كما في القرآن الكريم.

المناقشة:

- لماذا نؤمن بقصة الخلق وفق ما جاء به الوحي؟
- ما العبرة من قصة الخلق وفق ما جاء به الوحي؟

مراحل خلق آدم:

لقد مرَّ خلق آدم عليه السّلام بأربع مراحل، وهي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة خلقه من طين، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ} ص:71.

المرحلة الثّانية: وهي بعد مرور مدة، تحوَّل الطّين إلى حمأٍ مسنون، ثم بعد جفافها صارت صلصالاً، حيث قال تعالى: {وَإِذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي خالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ () فَإِذا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فيهِ مِن روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ} الحجر: 28-29.

المرحلة الثالثة: بعد مرور فترة، جعل الله تعالى ذلك الصلصال الذي أعدَّ في المرحلة الثّانية، ليكون جسد آدم عليه السلام، وفي هذه المرحلة تكوّنت صورة آدم عليه السلام، ولكن لم تنفخ الروح فيه بعد.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة نفخ الروح في جسد آدم عليه السّلام.

وعندما نُفخت الروح في جسد آدم، ابتدأت حياته بأن منحه الله العلم، {وعلم آدم الأسماء كلها} البقرة: 31، ثم تحدى الملائكة ليظهر أن لدى آدم من العلم ما لا تعرفه الملائكة.

وامتثلت الملائكة للأمر الإلهي بالسجود له تكريما، فمع أن الملائكة مخلوقات نورانية وهي لا تعصي الله أبدا، إلا أن آدم وجنسه كُرّموا من حيث امتلاكهم لحرية الإرادة والاختيار التي لا تملكها الملائكة.

وامتنع إبليس عن السجود تكبرا، وقال مخاطبا الله بشيء من التحدي {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}، فجاء الرد {فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين} الأعراف: 13، وقد طلب إبليس من الله أن يمهله ويطيل عمره إلى يوم القيامة، فكان له ذلك، وتعهد إبليس بأن يصب جام حقده وحسده على آدم وذريته ليغويهم ويحرفهم عن سبيل الحق، كما وعد بأن يسخر شياطين معه في هذه المهمة.

وفي سورة الأعراف: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون} الأعراف: 172-173، وبحسب كثير من المفسرين فإن هاتين الآيتين تلخصان مبدأ التكليف البشري، حيث خلق الله أرواح جميع البشر منذ خلق آدم، ثم أنطقهم الله وسألهم إن كانوا يقرون بأنه ربهم فشهدوا بذلك جميعا، ثم نُفخت تلك الأرواح في أجسادها بحسب الترتيب المقدر لها من عمر البشرية، لتدخل مرحلة الاختبار في الحياة الدنيا وتعيش بما يتوافق مع ما شهدت به منذ البداية، وهو الإيمان الذي يتوافق مع فطرتها البديهية، ثم ستُسأل يوم القيامة عن امتثالها لما أقرت به، وعندئذ سيسترجع البشر تلك الشهادة التي شهدوا بها منذ عصر أبيهم آدم، وسيعتذروا بالغفلة وبتقليد الآباء الذين ضلوا قبلهم.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ويؤكد هذا التفسير قول الله في سورة أخرى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما} الأحزاب: 72، 73. وثمة روايات كثيرة لتفسير هاتين الآيتين، وتكاد تتفق جميعها مع ما روي عن الصحابي ابن عباس الذي قال إن الأمانة هي الفرائض (أي التكليف)، فقبل أن يُكلف الله آدم وذريته بالعبادة ويمتحنهم بالدنيا عرض هذه المسؤولية على الموجودات المادية، فخشيت تلك المخلوقات من عاقبة ذلك وطلبت من ربها أن يعفيها، ثم عُرضت المسؤولية على آدم وبنيه، والأرجح أن يكون ذلك قد عُرض على كل إنسان بشكل فردي، فقبلوا جميعا دخول هذه المجازفة، مع علمهم بأن الفشل فيها يقتضي العقوبة، فجاء التعليق الإلهي بأن الإنسان كان ظلوما لعدم وفائه بالأمانة على الوجه الأمثل، وكان جهولا لعدم تقديره فداحة العاقبة الناجمة عن تفريطه بالأمانة.

ليست هناك رواية مؤكدة عن طريقة خلق حواء التي أصبحت زوجة آدم، لكن القرآن يوضح أنها خُلقت من جسده فيقول {يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} النساء: 1، وهناك خلاف بشأن الجنة التي قضى فيها آدم وحواء ردحا من الزمن، فالبعض يرى أنها الجنة التي سيؤول إليها المؤمنون بعد البعث، بينما يفسر آخرون النصوص التي تتحدث عنها بأنها كانت تصف جنة أرضية، وأن الهبوط منها كان هبوطا معنويا بمعنى الخروج، مثل الآية التي تقول لبني إسرائيل {اهبطوا مصرا} البقرة: 61.

سأل الله إبليس عن سبب امتناعه، واستنبأه حكمة تخلفه، فقال: {ما منعك أنْ تسْجُد لِما خلقْتُ بِيديّ أسْتكبرْت أمْ كنْت مِن الْعالِين}(ص:75)

فزعم أنه خير من آدم عنصرًا، وأزكى منه جوهرًا، وظن أن لا أحد يباريه في علو قدره، ولا يستشرف إلى سمو مكانته، وقال {أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين}(الأعراف:12).

جهر بالعصيان، وصرح عن المخالفة والبهتان، واستكبر عن أمر ربه، واستنكف أن يسجد لمن خلقه بيده، فصار من الكافرين.

فجازاه الله على عصيانه، وعاقبه على مخالفته، وناداه قائلًا له: {فاخْرُجْ مِنْها فإنّك رجِيمٌ ()وإنّ عليْك اللّعْنة إلى يوْمِ الدِّينِ } (ص:77-78)

سأل إبليس ربه أن يمهله إلى يوم الدين، وأن يمد له في الحياة حتى يوم يبعثون، فأجاب الله سؤله، وقال له: {فإنّك مِن الْمُنْظرين () إلى يوْمِ الْوقْتِ الْمعْلُومِ}(ص:79-80).

ولما استجيب سؤله، وتحققت رغبته، لم يشكر الله فضله، بل قابل نعمته بالكفران، وفضله بالجحود والنكران، وقال: {قال فبِما أغْويْتنِي لأقْعُدنّ لهُمْ صِراطك الْمُسْتقِيم}(الأعراف:16)، مترصدًا لغوايتهم. جاهدًا في إضلالهم، {ثُمّ لآتِينّهُمْ مِنْ بيْنِ أيْدِيهِمْ ومِنْ خلْفِهِمْ وعنْ أيْمانِهِمْ وعنْ شمائِلِهِمْ ولا تجِدُ أكثرهُمْ شاكِرِين} (الأعراف:7).

طرد الله إبليس من رحمته، ومد له في أمله، وقال له: امض لسبيلك الذي اخترته، وسر في طريق الشر الذي أردته، {واسْتفْزِزْ منِ اسْتطعْت مِنْهُمْ بِصوْتِك وأجْلِبْ عليْهِمْ بِخيْلِك ورجِلِك وشارِكهُمْ فِي الْأمْوالِ والْأوْلادِ} (الإسراء:64) وعدهم المواعيد الكاذبة، ومنهم الأماني البعيدة، فلن أخلي بينك وبين من صحت عقيدته، وقويت عزيمته من عبادي المخلصين، ولن أجعل لك عليهم سلطانًا، فقلوبهم عنك منصرفة، وآذانهم لقولك غير مصغية.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

أما ما اعتزمته من إغواء الناس وفتنتهم، فحسابك عليه عسير، وجزاؤك على اقترافه عظيم، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين.

سجدوا لآدم، فاعترفوا بفضله، وأقروا بأنه خير منهم مقامًا، وأقرب منهم إلى الله مكانًا، ولعلهم قد ظنوا أنهم ربما كانوا أغزر منه علمًا، وأكثر منه دراية وفهمًا. لذلك آتاه الله من علمه، وأفاض عليه من نوره، وعلمه أسماء الكائنات كلها، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة، فقال: {أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كنْتُمْ صادِقِين} (البقرة:31)، ليظهر عجزهم، ويستبين قصور علمهم، ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون آدم أولى بذلك وأجدر، وأن خلافته أحق ألا ننكر.

بهتوا لما ووجهوا به: وسقط في أيديهم حينما حاولوا البحث في طوايا نفوسهم، وأرادوا الرجوع إلى سابق علمهم، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلًا، فأقروا بعجزهم، واعترفوا بقصور علمهم، {قالُوا سُبْحانك لا عِلْم لنا إِلّا ما علّمْتنا إِنّك أَنْت الْعلِيمُ الْحكِيمُ}(البقرة:32).

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه، واقتبس من نور علمه، أمره الله أنه ينبئهم بما عجزوا عن معرفته، ويخبرهم بما فطرت مداركهم عن علمه، بيانًا لفضله، وإظهارًا لحكمة استخلافه. فأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه، فناداهم ربهم، {أَلمْ أَقُلْ لكُمْ إِنّي أَعْلمُ غيْب السّمواتِ والْأَرْضِ وأَعْلمُ ما تُبْدُون وما كُنْتُمْ تكْتُمُون} (البقرة:33).

حينئذ تبينوا فضله، وأدركوا سر خلقه، وظهرت لهم حكمة استخلافه.

أذاق الله إبليس بأسه، وسلبه نعمته، وأقبل على آدم فأسكنه وزوجه جنته، وأوحى إليه أن اذكر نعمتي عليك، فإني خلقتك ببديع فطرتي، وسويتك بشرًا على مشيئتي، ونفخت فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، وأفضت عليك قبسًا من علمي، وهذا إبليس قد أيأسته من رحمتي، ولعنته حين خرج عن طاعتي، وها هي ذي دار الخلد جعلتها لك منزلًا ومقامًا. فإن أطعت كافأتك بالإحسان، وخلدتك في الجنان. وإن تركت عهدي أخرجتك من داري وعذبتك بناري. ثم لا تنس أن إبليس هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى.

أباح لها أن يأكلا من الجنة رغدًا حيث شاءا، وأطلق لهما العنان في اجتناء ما يريدان من ثمارها، ونهاهما أن يقربا شجرة من بين أشجارها الكثيرة.

وليزيل كل إبهام في شأنها، وشك في معرفتها، أشار إليها، تعيينًا لها، وإزالة لكل ريب قد يتسرب إلى نفسيهما، وتوعدهما بالدخول في زمرة الظالمين إن قربا منها، أو تناولا شيئًا من ثمارها، ووعدهما أن يمد لهما في أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرة التي نهاهما عنها، فلا يمسهما في الجنة جوع ولا عري، ولا ينالهما ظمأ ولا نصب، فقال: {اسْكُنْ أَنْت وزوْجُك الْجنّة وكُلا مِنْها رغدًا حيْثُ شِئْتُما ولا تقْربا هذِهِ الشّجرة فتكُونا مِن الظّالِمِين} (البقرة:35). {إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنّك لا تظْمأُ فِيها ولا تضْحى} (طه:118-119).

سكن آدم الجنة، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، ولعله كان يتنقل بين أشجارها، ويتفيأ في ظلالها، ويقتطف من أزهارها، ويتفكه بثمارها، ويرتوي من عذب مياهها. وشاركته هذه المتعة زوجه، وعاشا كذلك مدة يرشفان من مناهل السعادة.

حز ذلك في نفس إبليس، وعز عليه أن ينعم آدم وزوجه، وهو مطرود من رحمة الله، مبعد عن جنته، فصحت نيته على أن يقوض عرش سعادته، ويسلبه نعمته، أليس هو الذي أنزله من عليائه، وأبعده عن نعمة الله ورضائه، واستبان بسببه جحوده ونكرانه! فليقدم على الثأر لنفسه، وليحاول أن ينتقص ذلك الذي أمر بالسجود له والاعتراف بفضله. فدلف إلى الجنة وحدثه في سر وخفاء، وأوهمه بأنه صادق الود،

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

مخلص في النصح، ثم جد في استمالته إليه، فلم يترك سبيلًا لذلك إلا ولجه، أو بابًا إلا طرقه. وأظهر له ولزوجه عطفه عليهما، وإشفاقه من زوال نعمتها، فقال: {ما نهاكُما ربُّكُما عنْ هذِهِ الشّجرةِ إلّا أنْ تكُونا ملكيْنِ أوْ تكُونا مِن الْخالِدِين} (الأعراف:20).

سواء كانت الجنة أرضية أم في مكان غيبي، فالذي يهمنا هنا هو أن الشيطان نجح في تنفيذ وعده من محاولته الأولى بإغواء آدم، فأقنعه مع زوجته بالأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، وكانت عاقبة ذلك خروجهما من الجنة لتبدأ بذلك قصة البشرية والتكليف والامتحان في الدنيا، مع وجود الشياطين التي تبذل جهدها لإغواء البشر، ومما يجب الالتفات له، أن النص القرآني جاء بصيغة المثنى عندما حدثت المعصية، ولم يخص أحدهما فجاء النص القرآني {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ} (طه: 121)، بعكس ما اشتهر من اتهام للمرأة أنها كانت وراء معصية آدم؛ بل أن النص في الآية أن آدم هو من عصى.

فلما خرجا عن أمر ربها سلبهما نعمته، وحرمهما جنته، وناداهما ربهما: {ألمْ أنْهكُما عنْ تِلْكُما الشّجرةِ وأقُلْ لكُما إنّ الشّيْطان لكُما عدُوٌّ مُبِينٌ} (الأعراف:22).

أنابا إلى الله، وندما على فعلتها، و{قالا ربّنا ظلمْنا أنْفُسنا وإنْ لمْ تغْفِرْ لنا وترْحمْنا لنكُوننّ مِن الْخاسِرِين، قال اهْبِطُوا بعْضُكُمْ لِبعْضٍ عدُوٌّ ولكُمْ فِي الْأرْضِ مُسْتقرٌّ ومتاعٌ إلى حِينٍ} (الأعراف:23-24).

تاب عليها، وغفر لهما زلتها، فأثلج ذلك صدرهما، وقرت به عينهما، وانبثق الأمل في نفسها بالبقاء في الجنة، والتمتع بنعيمها. وقد علم الله ما جال بخاطرهما، ووقف على ما تطلعت إليه نفسها، فأمرهما بالهبوط منها، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظل قائمة، ليحذرا فتنته، ولا يصغيا إلى إغوائه، فقال: {اهْبِطا مِنْها جمِيعًا بعْضُكُمْ لِبعْضٍ عدُوٌّ فإمّا يأْتِينّكُمْ مِنّي هُدًى فمنِ اتّبع هُداي فلا يضِلُّ ولا يشْقى}.

فجعل له مأربًا في الحياة، وأملًا يسعى إليه، وأخبره أنه قد انتهى طور النعيم الخالص والراحة التامة، وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نعيمها قد دخل في طور له فيه طريقان: هدى وضلال، إيمان وكفر، فلاح وخسران... فمن اتبع هدى الله الذي شرعه، وسلك الصراط المستقيم الذي حدده، فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه. ومن أعرض عن ذكر الله، وحاد سبيله، فسيكون عيشه ضنكًا، وسيكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وأهم الدروس المستفادة من قصة آدم ويمكن للإنسان الاتعاظ والاستفادة منها، هي:

إن في خلق آدم عليه السّلام تشريفاً وتكريماً له، وفي ذلك أيضاً تشريفٌ لبني آدم وذريته. أن يعلم الإنسان أنّه مخلوقٌ من تراب، وأنه في نهاية الحياة سيعود لذلك، فليحرص على التواضع، وعدم التعالي على الناس، والتكبر عليهم، فإن الناس جميعهم متساوون، فلا يوجد أحد أفضل من آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

والحذر الشديد، والتنبه من وساوس الشيطان الرجيم، فقد قال تعالى: {يا بَني آدَمَ لا يَفتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ كَما أَخرَجَ أَبَوَيكُم مِنَ الجَنَّةِ} الأعراف: 27. اعتراف الإنسان بأنه معرَّضٌ للخطأ، والغفلة، والسهو، والنسيان، وأنه في النهاية مخلوقٌ ضعيف، محتاجٌ لله تعالى.

عدم اليأس من رحمة الله تعالى، فإذا وقع الإنسان في خطأٍ ما، فلا ينبغي عليه أن ييأس من رحمة الله تعالى ومن مغفرته ذنوب عباده.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

المناقشة:

- لماذا كان رفض إبليس السجود لآدم؟
- لماذا خضع آدم لوسوسة إبليس رغم ان الله حذره منه؟ وما العبرة؟

أولاد آدم عليه السلام:

يؤكد الوحي أن آدم كان أول البشر وأول الأنبياء معا، ففي الحديث قال أحد الصحابة: يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟ قال: "نعم معلَّم مكلَّم". وفي حديث آخر قال أبو ذر: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ فقال صلى الله عليه وسلم "المسجد الحرام"، قال ثم أي؟ قال "المسجد الأقصى"، قال كم كان بينهما؟ قال "أربعون سنة"[17]. ونستنتج من الحديث أن آدم بنى أول معبد لعبادة الإله الواحد منذ فجر البشرية، ثم بُني المسجد الأقصى في بيت المقدس بفلسطين، ولا ندري إن كان آدم هو الذي بناه أم أحد أبنائه.

بدأ نظام الحياة يستكمل حينها، وتهيأت حواء لتستقبل أولادها، أول زهر تفتح في رياض الإنسانية، وأول نفحة من نفحات البشرية، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم. وقد كانا شديدي الحب والشغف، أن يريا فلذات أكبادهما على ظهر البسيطة، فتمتلئ جوانب الأرض بنسلهما، يمشون في مناكبها، ويأكلون من رزق الله. ولقد كان آدم حفيًّا بأبنائه، وحواء مستبشرة بقدومهم، رغم ما قاست من أهوال وآلام، هي لزام على الأم دائمًا في مثل هذه الحال، إلا أنها لا تلبث حتى تنتشي برخاء العطف والحنان، فإذا هي قريرة العين، باردة الفؤاد.

وضعت حواء توأمين: قابيل وأخته وهابيل وأخته، وشب الإخوة في رعاية الأبوين، حتى ملأتهم نضارة الحياة، وقوة الشباب. فنزعت البنتان إلى منازع النساء، وانبعث الولدان يضربان في الأرض كسبة للرزق، وابتغاء للخير، فكان قابيل من زراع الأرض، وكان أخوه من رعاة الأغنام.

سهل للأخوين مهاد الحياة وسهل عيشها، وانتشر رواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة. وعلى امتداد الزمن، وتتابع فسحة الأجل، قويت في كلا الفتيين غريزة الرجولة ومال كل منهما إلى أن تكون له زوجة ليسكن إليها ويطمئن بصحبتها، وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحلو المعسول، وراحت تتفقده وتتلمس كل سبيل حتى تصل إليه. وإرادة الله جلت حكمته قضت منذ الأزل أن يمتحن بنو آدم على ظهر البسيطة، فيكثر المال والبنون، وتأخذ الأرض بهجتها وتزين. كما جرى القدر ألا يكون الناس أمة واحدة، بل لا بد من التكاثر، والتباين في الرأي والمنع، والنوع والخلقة، والسعادة والشقاء، فأوحى الله تعالى إلى أبي البشرية أن يزوج كل فتى من فتييه بتوءم أخيه.

بهذا أفضى آدم إلى أبنائه، راجيًا أن يكون قوله الفصل. ولولا جموح النفس البشرية، وانسياقها إلى مهاوي البوار والخسران لكان للأب ما تمنى.

والغريزة الإنسانية قوامها الحرص والطمع، فمن كبح جماح شهوته، وكسر حدة سطوته، وجعل لعقله سلطانًا على هواه، فأولئك هم الذين أكرمهم الله في الدنيا والآخرة. وأما من ترخص لشهواته، وانفلت من عقله زمام هواه، فهو من الأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ذلك محك الطبيعة الإنسانية، وممتحن النفس البشرية في الأرض.

[17] رواه الشيخان.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

بعد أن أسر آدم بمكنون صدره إلى ابنيه ثار قابيل، ولم ينزل على إرادة أبيه، لأن نصيبه أقل جمالًا من نصيب أخيه، فحسده عليه، ولم يرض بالقسمة، وود لو تكون توءمته من نصيبه دون أخيه.

وكان الجمال الخلقي -وما زال -ريحًا هوجاء تتقاذف النفس البشرية، وقد توردها موارد الحتف والهلاك.

كان الجمال سببًا للشقاق والموجدة والحفيظة بين الأخوين: فجمح أحدهما عن طاعة أبيه، ونقض ما كان قد أبرم، وفصم ما كان قد أحكم.

هبت على الأب رياح عاصفة، ما دارت يومًا في خلده ولا حسبانه، وتوزعت نفسه بين رغبة ابنيه، والإبقاء على السلام بينهما والأمان، إلى أن هداه الله إلى مخرج يسد به مهب الريح. فطلب إليها أن يقرب كلاهما قربانًا إلى الله، فأيهما تقبل قربانه كان أحق بما اشتهى وأراد. فقدم هابيل جملًا من أنعامه، وقدم قابيل قمحًا من زراعته. وكل منهما يترقرق في صدره فيض الأمل، راجيًا أن يظفر بقصب السبق وأن يحوز أعواد الرهان.

وكان هابيل موفور الحظ موفق الخطوات، فتقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، لأنه لم ينزل على حكم أبيه، ولم يخلص النية في قربانه.

بعد ذلك سقط في يد قابيل، إذ انطفأ أمله، وراح ضحية الأثرة والحقد، وانبعثت شروره، فتوعد أخاه، وقال: لأقتلنك حتى لا أصاحبك شقيًا وأنت سعيد، ولا أؤاخيك مبسوط الأمل، وأنا مضطهد العاطفة. فقال هابيل لأخيه - والحسرة تقطع فؤاده: كان أولى لك يا أخي ثم أولى، أن تتعرف موضع الداء فتحسمه، وأن تتحرى مسالك السلامة فتنبعث إليها، لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين.

وكان هابيل رجلًا رزقه الله بسطة في العقل والجسم، من الذين حملوا الأمانة فصانوها، ووهبوا الحكمة فأجلوها، يؤثر رضا الله، ويتعشق طاعة الأبوين، ويرضى بقسمة ربه، ويرى أن الحياة متاع زائل، وعرض حائل. وكان شديد الإشفاق على أخيه، دائب النصح له. وكان كذلك يرى في نفسه قوة من قوة الله فما يضيره تهديد قابيل، وترك المقادير تجري في أعنتها، وما تعلقت مشيئته بسوء لأخيه، ولا اختلجت نفسه بأذى، لأن الله الذي خلق الطهارة طبعه عليها يوم طبع، فهو يخاف الله رب العالمين.

اتجه بعد ذلك هابيل بالنصح إلى أخيه، لعل كلماته يكون فيها الشفاء فتنزع داء الحقد من قلب أخيه. فقال: يا أخي، إنك لجائر، مائل عن طريق الصواب، آثم في عزمك، بعيد عن جادة الحق في رأيك، فأولى لك ثم أولى أن تستغفر الله، وأن ترجع عن غيك. أما إذا عقدت عزمك، وكنت في تدبيرك ماضيًا لا محالة، فإني أترك الأمر إلى الله، مخافة أن يلحقني إثم، أو يتعلق بنفسي أثر لعصيان، فتحمل وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

لم تكن آصرة الأخوة شفيعة أمام ذلك الحقد المتقد في صدر قابيل، ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهدئ من ثورة ذلك البركان الثائر، ولم تكن مخافة الله، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس التي كانت أول من أجرم على ظهر البسيطة من الناس.

في ساعة من ساعات الفلك الدائر، ولنزوة حقيرة من نزوات النفس الجامحة وقعت الواقعة؛ فراح هابيل قتيلًا بيد أخيه، فريسة الحمق والجهالة والغرام.

سأل آدم ابنه قابيل عن أخيه؛ فرد ردًّا ملؤه الخفة والطيش، وقال: ما كنت عليه وكيلًا، أو راعيًا وحفيظًا. ولكن آدم عرف بعد أن ابنه قد قتل، فسكت على هم وألم، وكبت في نفسه تلك الشعلة التي هاجت حزنًا على فقيده وإشفاقًا على أخيه.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ولقد كان هابيل أول من قتل على ظهر الأرض، وما عرف قابيل كيف يواري جثة أخيه، فحمله في جراب على ظهره، وظل مضطربًا حائرًا قلق النفس، وقد غدت نفسه ميدانًا تختصم فيه الحفيظة والعاطفة، فبات معذبًا، موسد الهم والحزن والعار!

وزادت رائحة الميت، وناء قابيل بحمله، ولم يدر كيف السبيل!

هنا لا بد أن تهبط رحمة الله رعاية لحق تلك الجثة الطاهرة، وسنًّا لدستور الخليقة، وإبقاء على كرامة آدم وولديه. وهنا كذلك لا بد أن يكون درس قاس يتلقاه ذلك الغر المأفون، وما هو بأهل لوحي الله، ولا لإلهام الله، بل لا بد أن يكون تلميذا للغراب! يتضاءل فهمه أمام حنكة ذلك المخلوق الأسود الضعيف، وتفنى شخصيته بعد ذلك الدرس الذي يتلقاه ذليلًا، صغير النفس، معذب الفؤاد.

بعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره، ووارى جثته تحت التراب. هنا استشعر قابيل الندم والحسرة وقد جاء النص القرآني بالقصة مرة واحدة دون ذكر الأسماء، وكان ذلك في قوله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائدة:27-31)

وبحسب القصص الإسرائيلية، يُعتقد أن الله وهب آدم ابنه شيث عوضا عن هابيل القتيل، وأن شيث كان ثاني الأنبياء بعد أبيه، وليست في أيدينا اليوم تفاصيل إضافية عن حياة شيث، سواء من الوحي أو من الكتابات التاريخية. وتقول القصص التوراتية إن النبي إدريس (أخنوخ بالعبرية) جاء في الجيل الرابع من أحفاده.

إدريس عليه السلام

قال تعالى: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" (مريم:56-57).

وبحسب العهد القديم من الكتاب المقدس لدى اليهود، فقد ورد باسم "خنوخ". وكان نسبه أنه ابن يرد بن مهلائيل بن أنوش بن شيث بن آدم، وأنه أبو جد نوح. وهو نسب يتطابق تقريبا مع ما ورد عن ابن عباس، كما روي عن الصحابي أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء، فأخبره عن عددهم ثم قال "أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم"، وهو حديث ضعيف رغم وروده بأربعة طرق. وإذا كان هو أول من خط بالقلم فعلاً فهذا يعني أن الكتابة بدأت في عصره، وأن الوحي الذي أنزل على الأنبياء الذين قبله كان يُنقل شفهياً، لكن أقدم ما وصلنا من التاريخ المدون يعود إلى الحضارة السومرية التي نشأت بعد الطوفان، وليس بين يدينا الآن نص مكتوب مما قبل ذلك.

ونقل المؤرخون المسلمون روايات عن حياة إدريس تداخلت فيها الإسرائيليات غير المؤكدة، ففي كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري عايش إدريس آدم وشيث وكان ثالث الأنبياء، وأُنزلت على إدريس ثلاثون صحيفة (أي كتاب سماوي)، وأن بدء انحراف البشرية عن عبادة الله كان في عصره عندما عبدوا الأصنام بدعوة من إبليس، فحمل إدريس وأتباعه السلاح وكان أول من جاهد في سبيل الله، ولكن هذا القول غير مؤكد، وثمة تفسيرات أخرى لدى المسلمين تميل إلى أن الوثنية بدأت في عصر نوح وليس

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

إدريس، وأن إدريس تابع مهمة آدم وشيث في تعليم الناس وإرشادهم إلا أنه لم يواجه معضلة إعادتهم إلى التوحيد لأن الوثنية لم تكن قد ظهرت بعد.

وهناك حديث لأبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم وصححه ابن حبان، جاء فيه أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب وأنه أنزل على خنوخ (إدريس) ثلاثين صحيفة.

ومع إقرار التوراة بأن إدريس تلقى وحيًا مكتوبًا من السماء؛ فإن "سفر أخنوخ" المنسوب إليه لا يُعترف به إلا من قبل الكنيسة الأثيوبية التي تعتبره جزءًا صحيحًا من الكتاب المقدس، وقد تم اكتشافه ضمن مخطوطات البحر الميت في نسخة مكتوبة باللغة الآرامية يعود تاريخها إلى مائة عام قبل الميلاد، وهي تتضمن إشارات لنبوة محمد في آخر الزمان.

نوح عليه السلام وقومه:

هو النبي الثاني ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام، والأول بعد آدم هو جده الأكبر إدريس عليه الصلاة والسلام. وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة في صحيح مسلم: (يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض) وبعضهم يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وإدريس وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ وهو إدريس بن يارد بن مهلئيل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم أبي البشر.

هذا هو الذي ورد في كتب التاريخ وفي التوراة في سفر التكوين وإن كان هناك كثير من الشك في نسق هذا النسب لأن الظن عند كثير من أهل العلم أن بين نوح وآدم أكثر من ذلك.

بحسب العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة التي يؤمن بها اليهود اليوم) فإن نوح كان ابن حفيد إدريس، وقد نشأ في الجيل العاشر بعد آدم، كما نجد ذكر نوح في كتاب "الكنز العظيم" وهو الكتاب المقدس لدى طائفة المندائيين الذين يقيمون حاليا في العراق، وهو يدعى في كتابهم "نو"، وما زالوا يقيمون احتفالا دينيا كل عام في ذكرى الطوفان.

وعلى صعيد الأساطير، نجد ذكر نوح (بطريقة محرَّفة) في ملحمة جلجامش.

بحسب الرواية الإسلامية للتاريخ، ظلت البشرية على قلة عددها مؤمنة بالله وعلى ديانة أبيهم آدم، إذ يقول القرآن الكريم في سورة البقرة {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} البقرة: 213، وقد فسر ابن عباس الآية بقوله: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[18] ولعله اقتبس هذا المعنى من حديث يقول أن رجلا قال: يا رسول الله، أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم معلَّم مكلَّم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟ قال: عشرة قرون. قالوا: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: "ثلاثمائة وخمس عشرة جمًّا غفيرا"[19]. والراجح أن كلمة قرن ليست محصورة بمئة سنة كما هو متداول في عصرنا بل قد تعني الجيل والأمة، فربما يكون القرن أطول لأن أعمار الناس آنذاك كانت طويلة جدا. يحتاج إلى تخريج الحديث

وفي حديث الشفاعة يوم القيامة، يذهب الناس إلى نوح ويقولون له: (يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض)[20] ويبدو من هذين الحديثين أن آدم وشيث وإدريس كانوا أنبياء، إلا أنهم لم يُكلفوا بالرسالة لأن

[18] أخرجه الحاكم في المستدرك
[19] أخرجه الحاكم والطبراني بسند صحيح
[20] رواه مسلم

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

الناس في العصور الأولى كانوا على الإيمان، فربما كانت الصحف (الكتب) التي أنزلت على الأنبياء الثلاثة الأوائل لا تتضمن رسالة إلى الناس بل مواعظ ونصائح ونبوءات، كما يُحتمل أن يكونوا رُسلا وأن يكون تأويل الحديث السابق هو أن نوح كان أول المرسلين إلى كافة أهل الأرض بعد أن مات معظمهم ولم يبق إلا قومه الناجون فكان رسولا إليهم وهم يمثلون كل البشرية.

وقد ورد ذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم وهاكم جدولًا بالآيات التي ورد ذكره فيها:

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات	رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
3	آل عمران	23	26	الشعراء	105، 106، 116
4	النساء	163	29	العنكبوت	14
6	الأنعام	84	33	الأحزاب	7
7	الأعراف	59، 69	37	الصافات	75،79
9	التوبة	70	38	ص	12
10	يونس	71	40	غافر	5،31
11	هود	25، 32، 36، 42، 45، 46، 48، 89	42	الشورى	13
14	إبراهيم	9	50	ق	12
17	الإسراء	3، 17	51	الذاريات	46
19	مريم	58	53	النجم	52
21	الأنبياء	76	54	القمر	9
22	الحج	42	57	الحديد	26
23	المؤمنون	23	66	التحريم	10
25	الفرقان	37	71	نوح	1،21، 26

ذكرت قصة نوح مفصلة في القرآن الكريم في سورة الأعراف وسورة هود وسورة المؤمنون وسورة الشعراء وسورة القمر وسورة نوح وهي مختلفة اللفظ بحسب ما تكون العناية موجهة نحوه من البيان وهي تتلخص بحسب نصوص القرآن فيما يأتي:

جاء في حديث قدسي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: {وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

به سلطانا}[21]. وهذا يفسر الآية التي وردت في سورة نوح بالقرآن الكريم، عندما شكى نوح قومه إلى الله، فقال من بين ما قاله عنهم {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} نوح: 23، وقد شرح الصحابي عبد الله بن عباس هذه المصطلحات بقوله إنها "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت"[22] أي أن أول جيل بشري عبَد الأصنام هو قوم نوح، وأن ذلك لم يحدث إلا بعد تدخل إبليس، حيث دبر خطته بدهاء وصبر طال عدة أجيال، ففي الجيل الأول أقنعهم بصناعة التماثيل لتكون تذكارا للأموات الصالحين، ثم تطلب الأمر مرور عدة أجيال لينسى الناس سبب صناعتها، فقال إبليس للأحفاد إن أجدادهم صنعوا التماثيل ليعبدوها فتنزل عليهم المطر والرحمة فعبدوها، فأرسل الله إليهم رسوله نوح ليأمرهم بالعودة إلى الإيمان.

ظل قوم نوح يعبدون الأصنام دهرًا طويلًا، واتخذوها آلهة يرجون منها الخير، ويستدفعون بها الشر، ويردون كل شيء في الحياة إليها. ودعوها بمختلف الأسماء، تارة ودًّا وسواع ويغوث، وتارة يعوق ونسرا[23]، على حسب ما يملي عليهم الجهل، ويزين لهم الهوى. فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام، وكان رجلًا فصيح اللسان، واضح البيان، رزين العقل، رزقه الله صبرًا على الجدل، وقدرة على تصريف الحجج، وبصرًا بمسالك الإقناع، دعاهم إلى الله فأعرضوا، فأنذرهم العقاب فعموا وصموا، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا... ولكنه ناضلهم وجادلهم، ثم صابرهم وطاولهم، ، ولم يضعف في إيمانهم رجاؤه، ولم يدع اليأس يسلك سبيلًا إلى قلبه، بل تفنن في دعوته، وجاهد في إبلاغ الرسالة، فدعاهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وإعلانًا، ووجه نظرهم إلى سر الوجود، وإبداع الكائنات: ليل داج، وسماء ذات أبراج، وقمر يسبح، وشمس تسطع، وأرض فجر خلالها الأنهار، وأنبت فيها الزروع والثمار. كل هذا يتحدث بلسان فصيح، وينطق ببرهان صحيح، عن إله واحد، وقدرة فذة عجيبة.

وهكذا ظل يناضل ويساجل، ويقيم الحجج، ويبسط البراهين، حتى آمن به قليل من قومه، استجابوا لدعوته، وصدقوا برسالته؛ أما الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا، وسبقت لهم الشقوة فلم يهتدوا -فقد تحالفوا عليه- واتفقوا على الاستهزاء به وتسفيه رأيه.

قال من كفر بدعوة نوح: ما أنت إلا بشر مثلنا، وواحد منا، ولو أراد الله أن يبعث رسولًا لبعثه ملكًا، ولكنا سمعنا وصدقنا قوله، وأجبناه لدعوته، ثم ما هؤلاء الأراذل من الناس وحثالتهم، وأهل الصناعات الخسيسة والحرف الدنيئة، الذين انقادوا إليك من غير تفكر، أو ينضجوا أفكارهم حول ما تقول، لو كان في كلامك خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء، ولو كان حقًّا ما تقول لكنا-ونحن أصحاب الأذهان الصافية، والأحلام الراجحة- أسبق إلى الإيمان بك.

ثم لجوا في الجدل، وأمعنوا في المراوغة، وقالوا: وما نرى لك يا نوح ولصحبك علينا من فضل، لا في العقل، ولا في بعد النظر، ولا في رعاية المصالح، ولا في معرفة المعاد وخاتمة المطاف، بل نظنكم كاذبين.

فأجابهم نوح وسفه قولهم: أرأيتم لو أنني كنت على بينة من ربي، ولدي حجة شاهدة بصدق دعواي، وقد آتاني رحمة منه وفضلًا، فعمي عليكم القصد، واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بأكفكم، أو طمس النجوم بأيديكم، فهل أستطيع لكم إلزامًا، أو أملك لحملكم على الإيمان سلطانًا.

---

[21] رواه مسلم

[22] رواه البخاري

[23] ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر: أسماء أصنام، وقد انتقلت عن قوم نوح إلى العرب

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

قالوا: يا نوح، إن أردت لنا هداية وتوفيقًا، وأردت منا نصرًا وإعزازًا، فاعمد إلى هؤلاء الرعاع الذين آمنوا بك، فأقصهم عن حظيرتك، وانبذهم عن حماك، فإننا لا نستطيع أن نسير على أسلوبهم، وكيف نستجيب لدين يستوي فيه الملك والسوقة.

قال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعًا، يستوي فيها الجميع، المشهور والمغمور، الأغنياء والفقراء، والمرؤوسون والرؤساء، وكيف أطرد قومًا نصروني وقد لقيت منكم الخذلان، ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم، وما صادفت منكم إلا الجحود والنكران، وهم ما برحوا قوامًا على الدين، داعين إلى الله، ثم كيف يكون حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجوني، وشكوا إلى الله أني قابلت خيرهم بالنكران، وإحسانهم بالجحود.

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل، واتسعت بيهم مسافة الخلاف، سئموا منه، وضاقت صدورهم به، وقالوا: {قالُوا يا نُوحُ قدْ جادلْتنا فأكْثرْت جِدالنا فأْتِنا بِما تعِدُنا إنْ كُنْت مِن الصّادِقِين} (هود:32).

فهزئ بهم نوح، وقال: إنكم تسرفون في الجهل، ومن أنا حتى آتيكم بالعذاب، أو أصده عنكم، وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد، فأبلغكم ما أمرت به، وأبشركم بالثواب مرة، وأنذركم بالعذاب أخرى، ألا إن مرد كل شيء إلى الله، إن شاء هداكم، وإن شاء استعجل فآذاكم، وإن شاء أملى لكم ليزيد في عقابكم.

ونوح كان من أولي العزم من الرسل، ظل في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، صابرًا على أذاهم، صامدًا لاستهزائهم، يرصد فيهم برق الأمل، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلا عتوًّا، وما بلغت دعوته منهم إلا نفورًا، فعاد حبل الرجاء باليًا، ووجه الأمل أسود حالكًا، ففزع إلى الله شاكيًا ملتجئًا، في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، ويكاد الأمل ينقطع في إيمانهم؛ فأوحى الله إليه: {أنّهُ لنْ يُؤْمِن مِنْ قوْمِك إلّا منْ قدْ آمن فلا تبْتئِسْ بِما كانُوا يفْعلُون} (هود:36).

ولما رأى نوح أن الله قد حقت كلمته، وقضى وحيه أنه لن يؤمن أحد بعد، وأنه قد طبع على قلوبهم، ووضعت عليها الأقفال، فلم يعودوا يخضعون لبرهان، أو يذعنون إلى إيمان، نفد صبره، وقال: {ربِّ لا تذرْ على الْأرْضِ مِن الْكافِرِين ديَّارًا، إنّك إنْ تذرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادك ولا يلِدُوا إلّا فاجِرًا كفّارًا} (نوح:26-27).

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: {أنِ اصْنعِ الْفُلْك بِأعْيُنِنا ووحْيِنا ولا تُخاطِبْنِي فِي الّذِين ظلمُوا إنّهُمْ مُغْرقُون} (هود:37). فاتخذ مكانًا قاصيًا عن المدينة، وأعد الألواح والمسامير، وأخذ يعمل، ولكنه لم ينج من سخرية القوم واستهزائهم.

وقال بعضهم: إنك يا نوح كنت تزعم قبل اليوم أنك نبي ورسول، فكيف أصبحت اليوم نجارًا، أزهدت في النبوة، أم رغبت في النجارة!

وقال غيرهم: ما بال سفينتك تصنعها بعيدًا عن البحار والأنهار! أأعددت الثيران لجرها، أم كلفت الهواء حملها! ولكنه أعرض عن استهزائهم، وقال: {إنْ تسْخرُوا مِنّا فإنّا نسْخرُ مِنْكُمْ كما تسْخرُون، فسوْف تعْلمُون منْ يأْتِيهِ عذابٌ يُخْزِيهِ ويحِلُّ عليْهِ عذابٌ مُقِيمٌ} (هود38-39).

وانصرف إلى السفينة يقيم ألواحها، ويصل أجزاءها، حتى استوت سفينة قوية، انتظر نوح ما يكون من أمر الله، فأوحي إليه: إذا جاء أمرنا، وظهرت آياتنا، فاعمد إلى سفينتك، وخذ من آمن من قومك وأهلك، واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ أمر الله.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وتفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجرت عيون الأرض، ثم جاوز القيعان والجبال، فهرع نوح إلى السفينة، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومرساها: والأمواج تفتح بين طياتها للكافرين قبورًا يغالبون الموت والموت يغلبهم، ويصارعون الموج ولكن الموج يصرعهم.

وأشرف نوح فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان -وكانت شقوة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه، ورغب عن دينه- يخوض اللجج، ويدافع الموج، ويحاول أن يعتصم بحبل ينجيه، أو ربوة تنقذه، ولكن الموت كان منه يدنو، والغرق يقترب، وصاح داخل الأب موضع الإشفاق والحب؛ فناداه، لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن: إلى أين يا بني؟ إنك تفر من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره، هلم مؤمنًا، فيلتم شملك بأهلك، وتنجو ببدنك، {يا بُنيّ ارْكبْ معنا ولا تكُنْ مع الْكافِرين} (هود:42).

ولكن هذه الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدانه، ولم تجاوز شغاف قلبه، وحسب أنه قادر على أن يحذر المكروه، ويفلت من يد القدر، فقال: إليك عني، فإني {سآوِي إلى جبلٍ يعْصِمُنِي مِن الْماءِ} (هود:43).

قال نوح وقد أشجاه الهم، وغلبه الحزن: يا بني، إنه {لا عاصِم الْيوْم مِنْ أمْرِ اللهِ إلّا منْ رحِم} (هود:43)، ثم فصل بينهما الموج، وحجز السيل، ولم يعد يرى ابنه، فركب على صدره الهمَّ، واتجه إلى الله، وقال: {ربِّ إنّ ابْنِي مِنْ أهْلِي} (هود:45)، وقد وعدت -ووعدك الحق- أنك تنجيني ومن آمن من أهلي، وأنت أحكم الحاكمين.

فأوحى الله إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك، ولا من خاصة عشيرتك، فقد سبقت له الشقاوة، وحقت عليه كلمة الكفر، فلا تعد من أهلك إلا من آمن بك، وصدق برسالتك، واستجاب لدعوتك، هذا الذي تعده حقًّا من أهلك وهو الذي وعدتك بنجاته، أما من جحد برسالتك، وكذب بكلمات ربك، فإنه خارج عن أهلك، منبوذ من شفاعتك، وإن كان بينك وبينه رحم ماسة، أو نسب جامع، وهو لا بد وارد على الهلاك مع الهالكين، وإن اعتصم بجبل أو أوى إلى ركن شديد؛ فإياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه، أو تجادلني في أمر لا تدركه: {إنِّي أعِظُك أنْ تكُون مِن الْجاهِلِين} (هود:46).

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق، والإشفاق ستر عنه الصواب، وكان أولى به أن يبسط كفيه شكرًا لله على ما خصه وقومه المؤمنين من النجاة وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك؛ فالتجأ إلى الله مستغفرًا من ذنبه مستعيذًا من سخطه، وقال: {ربِّ إنِّي أعُوذُ بِك أنْ أسْألك ما ليْس لِي بِهِ عِلْمٌ وإلّا تغْفِرْ لِي وترْحمْنِي أكُنْ مِن الْخاسِرِين} (هود:47)، وحال الموج بينه وبين ابنه فكان من المغرقين.

ولما بلغ الشوط غايته، وطويت صحيفة القوم الظالمين، كفت السماء، وابتلعت الأرض الماء، ورست السفينة على جبل الجودي، وقيل: بُعدًا للقوم الظالمين.

وقيل لنوح: اهبط بسلام إلى الأرض، أنت ومن آمن معك من قومك، تحفكم البركة. وتكلؤكم العناية، عناية الله.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

الموقع الذي يعتقد البعض أن سفينة نوح رست فيه

تتفاوت الروايات الإسرائيلية عن عدد الذين كانوا معه والمدة التي قضوها في الماء بعد أن تفجرت الينابيع وانهال المطر حتى ملأ الماء اليابسة، لكن القرآن الكريم اكتفى بالقول إن السفينة رست بعد ذلك على جبل الجودي، بينما تقول الرواية اليهودية إنه جبل أرارات، والراجح أن أرارات هي سلسلة من الجبال وليست جبلا واحدا وأن الجودي جزء منها، وقد اكتُشف عام 1948م أثر يُرجح أنه للمكان الذي استقرت فيه السفينة على سفح الجودي، وكُشف في الحفريات عن بقايا المسامير المعدنية التي يعتقد أنها استُخدمت في بناء السفينة وعن ألواح خشبية متحجرة بما يتوافق مع الآية القرآنية {وحملناه على ذات ألواح ودُسر}، وبعد نحو أربعين سنة اكتُشفت في قرية مجاورة مرساة حجرية، ثم تتالى الكشف عن مراسٍ مماثلة على طول الطريق الذي يُعتقد أن السفينة قطعته، حيث يُفترض أنها كانت تعمل على تثبيت السفينة كي لا تقلبها الأمواج الضخمة، فقد ورد في الآية أنها كانت {تجري بهم في موج كالجبال} (هود: 42)، ويجدر بالذكر أن اكتشاف هذه الآثار لا يعني بالضرورة أنها تعود فعلا إلى النبي نوح.

هناك من يفسر قصة الطوفان بأنها حدثت في أرض العراق ومحيطها ولم تشمل الكوكب كله، واستبعد أصحاب هذا الرأي أن تتسع السفينة لزوجين من كل الحيوانات والنباتات التي يبلغ عددها ملايين الأصناف والفصائل، مفترضين أن النبي نوح حمل ما كان يقدر على حمله من كائنات تعيش في منطقته لتستمر في التكاثر، وأن البشر على قلتهم كانوا محصورين في تلك المنطقة وحدها. لكن هناك من يرى أن الطوفان شمل الكوكب كله، ويستندون بذلك إلى تكرار قصته في تراث أمم بعيدة، مثل الصين والهند واليونان، وحتى لدى شعوب الدول الإسكندنافية في أقصى الشمال الأوروبي ولدى قبائل الأزتيك بأميركا اللاتينية. ويدافع اليهود والمسيحيون عن هذا الرأي بما يتوافق مع الكتاب المقدس، لكن وجود قصة الطوفان لدى الأمم البعيدة التي عاشت في قرون لاحقة قد يكون نتيجة ورودها على لسان أنبياء بُعثوا إليهم بعد نوح أو أنها انتقلت إليهم عبر أشخاص رحلوا إليهم، دون أن يكونوا قد عايشوا التجربة بالضرورة.

وقد وردت قصة الطوفان في لوح طيني يعود إلى الحضارة السومرية بمدينة نفر "نيبور" العراقية، كما وردت في ملحمة جلجامش الأسطورية التي اكتشفت ألواحها عام 1872م في العراق، وأعاد صياغتها أيضا الراهب البابلي بيروسوس في القرن الرابع قبل الميلاد. وتتشابه أحداث القصة في كل هذه الحكايات مع اختلافات بسيطة بما يتناسب مع السلطة التي كانت تحكم آنذاك.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

علاوة على ما سبق، تؤكد الاكتشافات الجيولوجية أن طوفانا هائلا غمر مناطق واسعة في سورية والعراق وتركيا وإيران ومحيط البحر الأسود، لكن زمن حدوثه مازال محل جدل، ويُرجح أنه يعود إلى نحو 8000 آلاف سنة من الآن على أبعد تقدير.

المناقشة:

- ماذا كان الدافع وراء الجريمة التي حدثت بين ابني آدم؟
- كيف تسرب الكفر بالله لقوم نوح؟
- ما موقف ابن نوح من رسالة أبيه؟ وماذا كان موقف نوح منه قبل الطوفان وبعده؟

ما بعد الطوفان:

هود عليه السلام وقومه:

ليست هناك أدلة تاريخية محفوظة في المخطوطات أو الألواح الطينية تحكي ما حدث للبشر بعد الطوفان، إلا أن الروايات المحفوظة لدى الأديان السماوية اليوم تؤكد أن نوحًا كان بمثابة أبي البشر الثاني، فكل من جاء بعده كانوا من سلالات أبنائه، ونجد تأييدا لذلك في القرآن الكريم الذي قال {وجعلنا ذريته هم الباقين} الصافات: 77، وقد فسر ابن عباس هذه الآية بقوله: (لم يبق إلا ذرية نوح)، وقال البعض إن السفينة كانت تقل أشخاصا آخرين ممن آمنوا بنوح إلا أنهم لم يتركوا ذرية من بعدهم، فكان الناس جميعا من أبناء نوح الثلاثة وهم سام أبو العرب (وبقية السلالات في ما يسمى بالشرق الأوسط، ويافث أبو الروم (السلالات الأوروبية اليوم)، وحام أبو الحبش (الشعوب الأفريقية)، ولا ندري إن كان الأبناء الثلاثة قد نزحوا إلى أصقاع الأرض وتوالدوا أم أن سلالاتهم هي التي هاجرت في مرحلة لاحقة.

يقول المؤرخ ابن خلدون في موسوعته "العِبر" إن قوم ثمود انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا البادية بجزيرة العرب، ثم تحضروا وحكمهم الملوك، وهما من أوائل الشعوب العربية.

وبحسب القرآن الكريم، بعث الله نبيه هود إلى قوم عاد بعد فترة غير محددة من الطوفان، ولم يحدد القرآن المكان الذي عاش فيه هذا القوم إلا أنه وصفه بكلمة "الأحقاف" أي منطقة الهضاب الرملية، كما أطلق عليه اسم "إرَم ذات العماد" (الفجر:7) أي التي تعلوها أعمدة المباني الضخمة، وهناك جدل واسع بشأن تحديد الموقع، وما زال الباحثون يقدمون اجتهادات مدعومة بحفريات وصور للأقمار الصناعية، مع التركيز على منطقة الربع الخالي ما بين عُمان واليمن والسعودية، وليست هناك نتائج مؤكدة، كما اجتهد بعض المؤرخين المسلمين لتحديد نسب النبي هود؛ فقال بعضهم إنه كان يسمى "عابر" وهو ابن حفيد سام بن نوح.

ذُكر هود في القرآن الكريم سبع مرات؛ فذكر في سورة الأعراف في الآية 65 وفي سورة هود في الآيات 50، 53، 58، 60، 89 وفي سورة الشعراء في الآية 124.

إن عادًا لم تُذكر في كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم، وليس بيد أحد من الناس من أخبارهم ما يوثق به ويصح التعويل عليه سوى القرآن وحده؛ فقد ذكر مساكنهم وأحوالهم وجسامة أجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم في الأرض، وتماديهم في الاستمساك بعبادتهم الباطلة، وما بذل هود في سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم، وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء إلى أن تأذن الله بهلاكهم.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

فعلى ضوء ما جاء في القرآن الكريم نقص قصصهم مع هود رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما جاء في أثناء القصة مما لا يدل عليه القرآن الكريم؛ فليس يبلغ الشيء القطعي ولا الشيء المؤرخ.

سورة الذاريات: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)}.

سورة القمر: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)}.

سورة الحاقة: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)}.

سورة الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)}.

أقامت عاد ردحًا من الزمن في رغد من العيش، ورغدٍ من الحياة، حباهم الله نعمًا وافرة، وخيرات جليلة، ففجّروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشأوا البساتين، وشادوا التصور، وقوة ومنحهم فوق ذلك بسطة في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، ولكنهم لم يُفكروا في مبدأ هذا الخلق، ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم؛ وغاية ما وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم، أن اتخذوا أصنامًا لهم آلهة تخضع لها جباههم، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير.

ثم إنهم بعد ذلك أفسدوا في الأرض، فأذلَّ القويُّ منهم الضعيف، وبطش الكبير بالصغير؛ فأراد الله هداية للأقوياء، وتمكينًا للضعفاء، وتهذيبًا للنفوس مما ران عليها من الجهل؛ فأرسل إليهم رسولًا من أنفسهم، يحدثهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم إلى خالقهم، ويبين لهم سفاهة عبادتهم، رحمة منه وكرمًا.

وكان هود رجلًا من أوسطهم نسبًا[24]، وأكرمهم خلقًا، فاختاره الله ليكون أمين رسالته، وصاحب دعوته؛ لعله يهدي هذه العقول الضالة، واضطلع بالرسالة، وخرج عليهم منكرًا أصنامهم، ومسفهًا عبادتهم.

قال: يا قوم، ما هذه الأحجار التي تنحتونها ثم تعبدونها وتلجؤون إليها، وما ضررها وما نفعها! إنها لا تجلب لكم نفعًا، ولا تدفع عنكم شرًّا، إن هذا إلا ازدراء لعقولكم، وامتهان لكرامتكم، ولكن هناك إلهًا واحدًا حقيقًا بأن تعبدوه، هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي أحياكم، وهو الذي يميتكم، مكن لكم في الأرض، وأنبت لكم الزرع، وبسط لكم في الأجسام، وبارك لكم في الأنعام، فآمنوا به، واحذروا أن تعموا عن الحق، أو تكابروا في الله، فيصيبكم ما أصاب قوم نوح، وما عهدهم منكم ببعيد.

قال ذلك هود عليه السلام، وهو يرجو أن تصل كلماته إلى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، فوجد عيونًا حائرة بعد أن سمعوا كلامًا لم يكونوا قبل قد سمعوه؛ قالوا: ما هذا الذي تهذي به وتخوض فيه، وكيف تريدنا أن نعبد الله وحده من غير شركاء، إننا نعبد هذه الأصنام لتقربنا إليه، وتشفع لنا عنده.

قال: يا قوم: إنما الله واحد لا شريك له، وعبادته وحده هي جوهر العبادة وهو قريب غير بعيد، أقرب إليكم من حبل الوريد، أما هذه الأصنام التي تعبدونها زلفي إليه، وشفاعةً عنده فهي تبعدكم عنه من حيث ظننتم أنكم تقتربون، وتدل على جهلكم في الوقت الذي تظنون أنكم تعلمون.

[24] وهكذا كل المرسلين وكل ما نقرأه من أحد من الرسل مخالفًا لذلك هو كذب وافتراء.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

فأعرضوا وقالوا: ما أنت إلا سفيه طائش الحلم، تسفه عبادتنا، وتعيب علينا ما وجدنا عليه آباءنا.. ما أنت.. وما ميزتك عن واحد منا؟ أنت تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتجري في حياتك على أسلوب الذي نجري عليه، فلم اختصك الله بالرسالة، وآثرك بالدعوة! ما نظن إلا أنك من الكاذبين.

قال هود: يا قوم، ليس بي سفاهة عقل حتى أدعي أني رسول من الله بعد السنين الطويلة التي عشتها بينكم، ولقد عشت فيكم دهرًا طويلًا فما أنكرتم عليَّ شيئًا، وما جربتم عليَّ حمقًا ولا طيشًا، وما الغريب في أن يختص الله واحدًا من قومه برسالته ويحمله دعوته، إنما الغريب أن يترك الناس سدى من غير رسول، وفوضى لا وازع لهم ولا رادع، على أني لست بيائس من إيمانكم، ولا ضائق بسفهائكم، ففكروا بعقولكم وانفذوا إلى الحقائق ببصائركم تروا أن الله واحد.

فآمنوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم بمطر وافر لزرعكم، ويمددكم بأموال فوق أموالكم، ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولوا مجرمين.

واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تبعثون: من عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها، فتدبروا لأنفسكم، وخذوا الأهبة لآخرتكم، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وإني لكم به نذير مبين.

قالوا: لا شك أن واحدًا من آلهتنا قد مسك بسوء فأصبت بخلل في عقلك، فأصبحت تهذي بكلمات لا حقيقة لها إلا في خيالك، وإلا فما الاستغفار الذي يرسل الله بعده الماء ويمد بالمال، ويزيد في القوة، وما يوم البعث الذي تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظامًا عفنة، وجثثًا بالية، فما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

ثم ما العذاب الذي تعدنا وتتوقع أن نلقاه! إننا لن نذعن لما تقول، ولن نرجع عن عبادة آلهتنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

فلما تبين له العناد وفي أحاديثهم، والإصرار في ثنايا أقوالهم؛ قال لهم: إني أشهد الله أنني قد بلغت وما قصرت؛ وجاهدت وما أحجمت، وسوف أظل على هذا البلاغ وذاك الجهاد، ولا أبالي جمعكم، ولا أخاف بطشكم، إني توكلت على الله ربي وربكم؛ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

وظل هو يدعو والقوم معرضون، وفيما هم على هذه الحال وجدوا سحابًا أسود فتوقعوا أنه يحمل لهم الماء، فاستبشروا بقدوم المطر، وقالوا: هذا سحاب عارض سيمطرنا، ثم تهيأوا لاستقباله، وأعدوا حقولهم لنزوله. ولكن هودًا قال لهم: ليس هذا سحاب رحمة، وإنما هي ريح نقمة، هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم.

وما راعهم إلا أن رأوا رحاهم ودوابهم التي في الصحراء، تحملها الرياح وتقذف بها إلى مكان بعيد! فداخلهم الفزع وأدركهم الهلع، وهرعوا سراعًا إلى بيوتهم يغلقونها عليهم ظنًا أنهم بذلك ينجون، ولكن البلاء كان عامًا، والخطب شاملًا: إذ حملت الريح رمال الصحراء، وظلت سبع ليال وثمانية أيام متتاليات، أصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، ودمرت حضارتهم، ومسح من التاريخ أمرهم {وما كان رَبُّك لِيُهْلِك الْقُرى بِظُلْمٍ وأَهْلُها مُصْلِحُون} (هود:117).

أما هود فقد آوى إليه صحبه، ومن آمن به، وظلوا بمكانهم، تعصف حولهم الرياح، وتثير الرمال، وهم آمنون مطمئنون، حتى هدأت الريح، وصفا الحال ثم انتقل إلى حضرموت، وقضى بعدها البقية الباقية من عمره.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

المناقشة:

- لماذا يطلق البعض على نوح الأب الثاني للبشرية؟
- ماهي العبرة من قصة هود مع قومه؟

صالح عليه السلام وقومه:

ذُكر اسم صالح في القرآن تسع مرات، في سورة الأعراف في الآيات 73، 75، 77، وفي سورة هود في الآيات 61، 62، 66، 89 وفي سورة الشعراء في الآية 142 وقوم صالح هم ثمود.

نسب صالح وثمود:

اختلف في نسبه فقال الحافظ البغوي أنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر ابن ثمود، وعن وهب أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود.

وأما ثمود فهي القبيلة التي منها صالح سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن أرم بن سام وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن أرم، قال الألوسي هو المنقول عن الثعلبي.

وبما أن أرض عاد غير مكتشفة بعد فليس هناك مصدر لتاريخ ذاك القوم سوى القرآن الكريم، وقد ذكر القرآن من بعد عاد قوم ثمود، وهم من أوائل القبائل العربية التي يعتقد أنها انحدرت من سام بن نوح وهاجرت مبكرا إلى الحِجر (مدائن صالح في منطقة تبوك بشمال السعودية حاليًا)، وأسست إحدى أولى الحضارات البشرية، وتخبرنا النقوش الصخرية أن الأنباط حفروا تلك المنازل الضخمة في الصخر والتي مازالت باقية إلى اليوم، لكن هناك رسوما أقدم تؤكد أن المعينيين (سلالة ثمود) واللحيانيين سكنوها قبلهم، وأن المعينيين كانوا هم أول من سكنها قبل الميلاد بنحو 7 آلاف سنة.

مدائن صالح التي كانت موطن ثمود

هلكت عاد بذنوبها؛ فأورث الله ثمود زمام الحضارة، فخلفوهم فيها، وعمروها أكثر مما عمروها، وفجروا العيون، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشادوا القصور، ونحتوا من الجبال بيوتًا، ليأمنوا غوائل الدهر، وكانوا في سعة من العيش ورغد، ونعمة وترف، ولكنهم لم يشكروا لله، ولم يحمدوا له فضله، بل زادوا عتوًّا في الأرض وفسادًا، وبعدًا عن الحق واستكبارًا، وعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون.

بعث الله إليهم صالحًا من أشرفهم نسبًا، وأوسعهم حلمًا، وأصفاهم عقلًا، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضهم على توحيده، فهو الذي خلقهم من تراب، وعمر بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام من دونه، فهي لا تمل لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا تغني عنهم من الله شيئًا.

ذكرهم بأواصر القربى التي تربطه بهم، ووشائج النسب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومه وأبناء عشيرته، وهو يحب نفعهم، ويسعى في خيرهم، لا يضمر لهم سوءًا؛ ولا يريد بهم شرًّا، وأمراهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا من إثم، فهو لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب، ولمن أناب إليه سميع.

صمت منهم الآذان، وغلِّفت القلوب، وعميت الأبصار، فأنكروا عليه نبوته، وهزءوا بدعوته، وزعموا له أنها نابية عن الحق، بعيدة عن الصدق، ثم لاموه فيها، وأنبوه على صدورها منه، وهو الراجع عقلًا، الصائب رأيًا، وقالوا: يا صالح، عهدناك ثاقب الفكر، مصيب الرأي، وقد كانت تلوح عليك صفات الخير، وأمارات الرشد، وكنا ندخرك لملمَّات الدهر، وكنا نرجو أن تكون عدتنا حين يضيق بنا الأمر، ويشتد الخطب، فنطقت نكرًا؛ ما هذا الذي تدعونا إليه! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا، وقد درجنا عليه، إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، لا نطمئن إلى قولك، ولا نثق بصدق دعوتك، ولن نترك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هواك وزيغك.

حذرهم مخالفته، وأعلن فيهم رسالته، وذكرهم بما أسبغ الله عليهم من نعمه، وخوفهم بأسه وبطشه، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع، ولا يطمح في مغنم، أو يتطلع إلى رياسة، وهو لم يسألهم أجرًا على الهداية، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجره على الله رب العالمين، دفعًا لكل شكٍ قد يجول في خواطرهم.

آمن به بعض المستضعفين من قومه، أما الملأ الذين استكبروا فأصروا على عنادهم، وتمادوا في طغيانهم، واستمسكوا بعبادة أوثانهم، وقالوا له: إنك مصاب في عقلك، وضاع صوابك، وما نظن إلا أن أحدًا سلط عليك شيطانه، أو أعمل فيك سحره، فأصبحت تنطق بما لا تفقه: فلست إلا بشرًا مثلنا، وما أنت بأشرفنا نسبًا، أو أفضلنا حسبًا، أو أوسعنا غنى وجاهًا، وفينا من هو أحق منك بالنبوة، وأجدر بالرسالة؛ فما حملك على انتهاج هذه الطريق، وسلوك تلك السبيل، إلا رغبتك في تعظيم نفسك، وتطلعك إلى الرياسة على قومك!

حاولوا صده عن دينه، وصرفه عن دعوته، وزعموا له أنهم إن اتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم، وخالفوا الطريق القويم، وقال: يا قوم، إن كنت على بينةٍ من ربي، وآتاني منه رحمة، ثم اتبعت طريقكم، وسرت في سبيلكم، وعصيت ربي، فمن يمنعني من عذابه، أو يعصمني من عقابه، إن أنتم إلا مفترون.

فلما وجدوا منه استمساكًا برأيه، واعتصامًا بحقه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثر تابعوه، ويعظم ناصروه، وعز عليهم أن يكون المرشد للقوم، والموئل عند اشتداد الخطب، فينصرف الناس عنهم، ويفزعون إليه في كل شأن. ولا شك أنه سيهديهم إلى ما يقربهم إلى الله، ويصدهم عما ينئيهم عنه، فخافوا زوال دولتهم، وذهاب سلطانهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ يتبينون بها صدق دعوته، ومعجزة ظاهرة تصدق رسالته؛ فأخرج لهم ناقة مع ابنها من قلب الصخر الأصم، وقال لهم: هذه ناقة تشرب من الماء في يوم ولا تشربون أنتم فيه من الماء، فقط تشربون من لبنها إن أردتم، ولكم أن تشربوا من الماء في اليوم التالي، وهي سوف تمتنع عن الشرب في يومكم، فاتركوها تأكل في أرض الله.

لم ير الناس قبلًا ناقة تستأثر يومًا بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يكف يومًا عن شربهم، ولا شك أن صالحًا عهد فيهم إصرارًا على الكفر، واستمساكًا بالباطل، وعلم أن المنكر يفزعه ظهور حجة خصمه يخيفه وضوح برهانه، بل يحرك كامن غيظه ومستور حقده قيام شاهده، وقوة آيته، لذلك خاف إقدامهم على قتلها، وحذرهم الفتك بها، فقال لهم: لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

مكثت الناقة بينهم زمنًا تأكل في أرض الله، ترد الماء يومًا، وتصد عنه يومًا، ولا شك أن قيامها استمال إليه كثيرًا من قومه، إذ استبانوا بها صدق رسالته، وأيقنوا بصحة نبوته. فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول، فقالوا للمستضعفين من قومهم -وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم، فعمرت به صدورهم، وانصاعت إليه أفئدتهم-: أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه! فقالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون؛ فلم تلن قناة القوم، أو يخففوا من غلوائهم، بل أعلنوا كفرهم، وصارحوهم بتكذيبهم وقالوا: إنا بالذي آمنتم به كافرون.

وقد تكون نوازع الشر قد دفعتهم إلى إخفاء آيته، وطمس معالم حجته، لأنهم رأوها تجذب القلوب نحوه، وتستميل النفوس إليه، فخافوا أن يكثر المؤمنون به، وينتشر أنصاره وتابعوه.

أو قد يكون خوفهم على سطوتهم على الناس التي ضعفت، وقوة نفوذهم الذي تراجع، أو كل أولئك قد حملهم على عقرها، ودفعهم إلى قتلها، رغمًا من تحذيرهم بالعذاب وتوعدهم بالهلاك إن مسوها بسوء.

ما أظن إلا أن القوم حسبوا هذه الناقة خطرًا جسيمًا، وشرًّا مستطيرًا، ففكروا طويلًا، وأمعنوا كثيرًا، ولا أخالهم إلا هابوا قتلها، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها، وكلما هموا بها قفلوا راجعين وأدبروا خائبين.

وبقي القوم يدفعهم الشر، وتمنعهم الرهبة، لا يجرؤ أحدهم على إيذائها، ولا يتقدم واحد إلى مسها، فاستعانوا بالنساء يبذلن ما يملكن من دلال وإغراء، ويغرين بما فيهن من جمال، والمرأة إذا أمرت كان الرجال طوع أمرها، وإذا تمنت تسابقوا إلى تحقيق أمنيتها، فها هي ذي صدوق بنت المحيا، ذات الحسب والمال، تعرض نفسها على مصدع بن مهرج، إن هو عقر الناقة، آية صالح البينة، وحجته البالغة، وتلك هيا عنيزة العجوز الكافرة تجاذب قدار بن سالف إليها، وتعرض عليه إحدى بناتها، ولا تطلب إليه بذلًا، ولا تسأله عطية أو مالًا، إلا عقر الناقة التي تستميل القلوب، وتشعل جذوة الإيمان وهي مع ذلك تقض مضجعهم، وتستأثر بشربهم، وتنفر منها أنعامهم.

فصادف هذا الإغواء هوى في نفسهما، وأفاض عليهما إقدامًا وجرأة، فسعيا بين القوم يلتمسان من يؤازرهما، ويبحثان عمن يعاضدهما، فاستجاب لهما سبعة آخرون، وانطلقوا إلى الناقة يرصدونها، وخرجوا يرقبونها؛ فلما صدرت من وردها، ورجعت عن مائها، كمن لها مصدع، فرماها بسهم انتظم عظم ساقها، وابتدرها قدار بن سالف بالسيف، فكشف عن رأس قدمها، فخرت على الأرض، ثم طعنها في صدرها فنحرها! وأزاحا عن كاهلهما همًّا ثقيلًا، وحملًا عظيمًا، ورجعا إلى القوم يزفان إليهم البشري، واستقبلها الناس كما يستقبل القائد الظافر، أو الملك الفاتح، وهللوا لمقدمهما، ونسجوا لهما أكاليل المدح، وأضفوا عليهما جميل الثناء.

عقروا الناقة، وخالفوا عن عمد أمر ربهم، وكشفوا عن ذات أنفسهم، واستخفوا بوعيد الله، وقالوا: يا صالح، ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

فقال لهم صالح: قد حذرتكم إن أصبتموها بأذى، أو مسستموها بسوء، ولكنكم قد اجترحتم الذنب، واقترفتم الإثم، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب، ويحل عليكم في نهايتها العقاب، ذلك وعد غير مكذوب.

ولعله قد ضرب هم ذلك الميعاد، ترغيبًا لهم في الإنابة إلى الله، وحثًّا لهم على الاستماع إلى دعوته، ولكن الشكوك ما زالت متأصلة في نفوسهم، والأوهام متسلطة على أفئدتهم، فلم تغنهم النذر، ولم يثوبوا إلى رشدهم، بل ظنوا وعيده كذبًا، وتحذيره زورًا وبهتانًا، فتمادوا في استخفافهم، وسألوه أن يعجل بعذابهم، ويأتيهم بما وعدهم، فقال: يا قوم، لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

ولكنهم تمادوا في الضلال، واستسلموا لنوازع الشر، فقالوا: اطيرنا بك ومن معك! واجتمع نفر من قومه وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جنح الظلام، ويباغتوه وأهله والناس نيام، فيوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد، فأجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سرًّا مكتوما، لا يذيعونه ولا يتناقلونه.

بيتوا له الشر، وأضمروا له ولأهله القتل، ظنًّا منهم أن ذلك يعصمهم من العذاب، وينجيهم مما سيحل بهم من عقاب؛ ولكن الله لم يمهلهم، بل أحبط مكرهم، ورد إليهم كيدهم، ونجاه مما أرادوا به، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب، وأنزل بالكافرين عقابه، تصديقًا لوعده، ونصرا لنبيه، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

{فَلَمّا جاءَ أَمرُنا نَجَّينا صالِحًا وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ بِرَحمَةٍ مِنّا وَمِن خِزيِ يَومِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القَوِيُّ العَزيزُ*وَأَخَذَ الَّذينَ ظَلَمُوا الصَّيحَةُ فَأَصبَحوا في دِيارِهِم جاثِمينَ كَأَن لَم يَغنَوا فيها أَلا إِنَّ ثَمودَ كَفَروا رَبَّهُم أَلا بُعدًا لِثَمودَ} (هود:66-68).

ولم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح ما حل بهم، إذ أصبحت جثثهم هامدة، وديارهم خاوية، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطع نياط قلبه، {وقال يا قوْمِ لقدْ أبْلغْتُكُمْ رِسالة ربّي ونصحْتُ لكُمْ ولكِنْ لا تُحِبُّون النّاصِحِين} (الأعراف:79).

وقد أكد رسول لله صلى الله عليه وسلم وقوع هذه الحادثة في مدينة الحِجر نفسها عندما مر بها مع صحابته أثناء غزوة تبوك[25].

يقول ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ" إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يزعمون أنه لا ذكر لعاد وهود وثمود وصالح في التوراة، ويرد على ذلك بالقول "وأمرهم عند العرب في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام"، أي أن قصصهم لم تدوَّن إلا أنها بقيت محفوظة شفهيا بين شعوب الجزيرة العربية حتى نزل القرآن وأكدها.

المناقشة:

- ما العبرة من قصة صالح مع قومه؟
- ناقش مدى تأثير المعجزة في رسالة الأنبياء مسترشدا بقصة صالح مع قومه.

المراجع:

في القسم الثاني تم الاعتماد بشكل أساسي على المراجع الآتية:

- الحافظ عماد الدين ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت.
- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار النهضة، القاهرة.
- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، دار الجيل، بيروت.

[25] قصة الناقة: بعد أن أكثر صالح من دعوة قومه طلبوا منه أن يأتيهم بينة وأن تكون ناقة تخرج من الصخر وللبخاري: أن رسول الله لما نزل الحجر في غزوة تبوك: وهم ألا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا: قد عجنا واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهرقوا الماء.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

السيرة والتاريخ

ثانياً :

السيرة النبوية الشريفة

السيرة النبوية المشرفة

العهد المكي

المدخل للسيرة النبوية[26]:

تعريف السيرة النبوية:

السيرة في اللغة: هي الطريقة والحالة، وهي مشتقَّة مِن فعل: سار يسير سيرًا وسيرة، يقال: فلان سار سيرة حسَنة؛ أي: سلك طريقةً حسنة، ومنه قوله تعالى: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) [طه: 21]، واصطلاحًا: هي قصَّة الحياة وتاريخها.

والسيرة النبويةُ:

"هي مجموعُ وقائع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشمائله الخِلقيَّة والخُلقية".

تاريخ تدوين السيرة النبوية:

اعتنى الصحابة ومِن بعدهم التابعون بنقلِ السيرة النبويَّة؛ لما لها من ارتباطٍ وثيقٍ بالسنة المطهرة، إلاَّ أن تدوينَ السيرة لم يحدُث إلاَّ في القرنِ الثاني الهجري.

ويُعتبر محمد بن إسحاق (ت 150هـ/767م) الرائد في هذا المجالِ؛ فهو من أول من ألَّف في السيرةِ، ولذا قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله: "من أراد أن يتبحَّر في المغازي؛ فهو عيالٌ على محمد بن إسحاق"، ثم كثر التأليفُ بعد ذلك، وأشهر ما عُرف من كتب السيرة: ابن هشام (ت 218هـ/833م) "سيرة ابن هشام"، و"المغازي" للواقدي (ت207هـ/823م)، و"الطبقات" لابن سعد (ت 230هـ/845م).

ومما يجب الإشارة إليه أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، هي أوثق سيرة لنبي من الناحية التاريخية، فهي موثقة بالأدلة التاريخية وفق منهج البحث التاريخي، فضلا عن ثبوتها بالقرآن الكريم.

من أين تبدأ السيرة وأين تنتهي؟

لم يتَّفق العلماء على تاريخٍ محدَّد يبدؤون منه كتابَةَ السيرة؛ فبعضهم يرى أن سيرةَ النبي بدأَت مع نشأة الخليقة، وبعضهم يبدؤوها مع بِناء إبراهيم الكعبة وقصة هاجر وإسماعيل الذي هو جدُّ قريش وكلِّ العرب المستعربة، وبعضهم يبدؤوها من عند جدِّ النبيِّ "عدنان"؛ الذي ينتهي عنده نسب النبيِّ المتفَق عليه، وآخر يبدؤوها من ميلاد النبيِّ صلى الله عليه وسلم والإرهاصاتِ التي حدثَت عند ميلاده، ولكلٍّ منهم أدلَّته التي يركنُ إليها، إلا أنهم يتَّفقون على أنها تنتهي عند وفاتِه صلى الله عليه وسلم، وبداية عصر الخلفاءِ الراشدين. وفي سطورنا هذه سوف نبدأ مع ميلاده صلى الله عليه وسلم.

السيرة والقرآن:

ترتبط السيرة النبويَّة بالقرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا؛ فهي تستعرض لنا أسبابَ النزول، وتعرّفنا المكيَّ والمدني منه؛ ما يعين على فَهمِ آياتِ الأحكام ومعرفةِ النَّاسخ والمنسوخ منها، كما أن القرآن يُعدُّ المرجعَ الأولَ للسيرة النبوية؛ فقد أشار إلى أهمِّ أحداثِها، وقد ربط ابنُ سعدٍ في كتابه "الطبقات" بين كلِّ غزوةٍ من الغزوات الكبار وما نزَل فيها من آياتٍ بيِّنات، على سبيل المثال لا الحصر:

[26] جاء هذا القسم مستفاد من عدد من المقالات تحت عنوان بحوث في السيرة النبوية للباحث عبدالله محمد احميد: https://www.alukah.net/sharia/0/86401/#ixzz6WBUJD7Ic، تاريخ الاطلاع 2020/08/22

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

- غزوة بدرٍ الكبرى: أولى معارك الإسلام الفاصِلة، نزلَ في شأنِها سورةُ الأنفال، كما ذُكرت في سورة آل عمران.
- غزوة أحد: نزل في شأنِها ستون آية من آل عمران؛ تبدأ من الآية (121).
- غزوة حمراء الأسد: التي تعتبر تكمِلةً لغزوة أُحُد، نزل في شأنها آيات من نفسِ السورة، الآيات (172 -175).

وتأتي الآيات القرآنية لتروي لنا كثير من تفاصيل مسيرة رسول الله، من سورة المسد التي تصف العذاب الذي سيقع على عم رسول الله أبو لهب وزوجته لقيام حالة العداء والإيذاء لرسول الله من جانبهم، ووصف رحلته في الإسراء والمعراج، ومن وصف الآداب التي يجب أن يتبعها المسلمين مع رسول الله، ومن وصف لمشاكل المجتمع الإسلامي الأول، ومعاناة المجتمع مع المنافقين، حتى وصف تلك المرأة التي جاءت تناجي رسول الله في أمر فراقها عن زوجها في سورة عرفت باسم هذه الحادثة "المجادلة"، هذا بخلاف وضع التشريعات للعلاقات الاجتماعية والمالية على مختلف الأصعدة، ومن ثم فإن القرآن هو المصدر الأول والأوثق للسيرة النبوية المشرفة.

فروع علم السيرة:

يقسّم الباحثون في عِلم السِّيَر السيرةَ إلى عدَّة فروع، كلُّ فرعٍ منها يختصُّ بدراسة جانبٍ من جوانب حياة النبيِّ الكريم، وهذه الفروع قد يجمعها الباحثُ في كتابٍ واحد من كُتب السيرة، وقد يقتصر الكتاب على دراسةِ فرعٍ واحد منها، وهذه الفروع حسب المجالِ المدروس يمكن حصرها في أربعة أنواعٍ؛ هي:

أولاً: المغازي؛ ويختص الباحثون في هذا المجال بدراسةِ غزوات النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأسبابها التي أدَّت إليها، ونتائجها على الصعيدَين السياسِي والعسكري، وذِكْرِ مَن حضرَها من المؤمنين، ومَن أسهم له، ومن خُلِّف على المدِينة، وتشكِيلة الجيش الإسلامي، وعديدِه، وتوزيعه في الميدَان، وحَمَلَة راياته، ثمَّ ذكر تعداد الجيشِ المعادي، وعددِ أَلْويته، وأبرز قادَته الذين ساهموا في إعدادِه وتشكيلِه.

وقد يقتصر الباحثُ في هذا المجال على المغازي فقط، وقد يوسِّع الدراسةَ لتشمل السرايا التي أُرسِلَت في مهمة جهاديَّة أو لاستطلاع خبرِ عدوٍّ، والبعوث التي بُعثت في مهمَّات دعوية، وبالتالي تكون دراسةً شاملة لجميعِ الأعمال العسكريَّة والدعوية التي حدثَت بعد هجرة المسلمين إلى المدينة واستقرارهم فيها، وأدَّت إلى قيامِ دولةٍ إسلاميَّة مرهوبة الجانب.

وقد اعتنى الجيلُ الأول من هذه الأمَّة بتدريسِ المغازي وتدوينِها، وأُلِّف في هذا المجال مؤلَّفات عدَّة في عصور زمنيَّة متفاوتةٍ، أبرز تلك المؤلَّفات: كتاب "المغازي" للواقدي.

ثانيًا: النَّسَب الشريف: ويختصُّ هذا المجالُ بدراسة نَسَب النبيِّ صلى الله عليه وسلم من جهةِ الآباء والأمَّهاتِ، وتدوين ما عُرف من تاريخِ ومآثرِ أجدادِه؛ مِن سُكنى إبراهيم وهاجر وإسماعيل مكَّة إلى مولدِه الشَّريف وذكر بشارتهم بِه، ثمَّ يتوسَّع هذا المجال ليخوضَ في أنساب العرَب العدنانيَّة "المستعربة" التي يَلْتقي نسبُها مع نسَب النبيِّ عند عدنان، ثمَّ يتدرَّج البحث نزولاً مع أجدادِه إلى أن يصل إلى شَيْبة وابنِه عبدالله والد الرَّسول الكريم، وأبرزُ ما أُلِّف في هذا المجال من الكتب: "عمود النسب"، وكتاب: "أمَّهات النبي"، وكتاب: "أنساب قريش".

ثالثًا: الشمائل النبوية: ومجال اختصاصِ هذا الفرع دراسة صِفات النبيِّ الخِلقية والخُلقية، وهو بابٌ واسع عليه عِماد المنظومة الأخلاقيَّة والتربويَّة في حياة المسلم، وقد كان هذا المجال مِن اختصاص علماءِ الحديث، إلاَّ أنَّه وبعد أن توسَّعت رقعةُ الدَّولة الإسلاميَّة ودخلَت شعوبٌ كثيرة في هذا الدِّين، زاد ذلك مِن حنَق الملحدِين المعادِين للدِّين؛ فبدؤوا يطعنون في الإسلام ونبيِّه الكريم -لعلَّهم بذلك يصرفون النَّاس عن

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

الدخول في الدِّين- فتجرَّد المخلصون يذبُّون عن الرَّحمة المهداة للعالمين، وصنَّفوا كتبًا في سيرةِ وشمائل خاتم المرسلين، وأبرز مَن ألَّف في هذا المجال: القاضي عياض: "كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى"، وألف الترمذي كتابه: "الشمائل المحمدية".

وأنوّه هنا: إلى أنَّ القرآن الكريم ذَكَر جميعَ شمائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما أَحاطه الله عزَّ وجل بِه من رعايتِه، وبشارة النبيّين به، والميثاق الذي أَخذه اللهُ منهم بلزومِ اتِّباعه ونصرتِه.

رابعًا: أخباره عليه الصلاة والسلام وبيان مَا له مِن أهلٍ ومالٍ، ولا يمكن اعتبار هذا الباب فرعًا مستقلاً عن الفروع الأخرى؛ بل يمكن دمجه في الأبواب السَّابقة، ومجالُ هذا الباب بيان ما لَه من أعمامٍ، وأخوال، وأصهارٍ، وزوجاتِه "أمهات المؤمنين"، وأبنائه وبناته، وأحفادِه الذين وُلدوا في حياته، وذكر أمَّهاته من الرَّضاعة، وإخوانه وأخواته من الرَّضاعة، وبيان كُتَّابه الذين كَتبوا الوحيَ المنزَّل عليه، ورسائله للنَّاس، وعهوده مع القبائل، وذكر حُرَّاسِه وشُعَرائه، وخطبائه ومؤذِّنيه في الحضَر والسَّفر، وحُدَاتِه الذين يحدون له في المسير، وبيان مَا له مِن الموالي والخدَم والجواري، ومن اقتطع له من الفَيْء، ومن استعمل على أمرٍ من أمور المسلمين، ومن ولاَّه ولايةً، ثمَّ بيان ما له من خيلٍ وحميرٍ، وبِغال وإبل، وما له من سيوفٍ ودروع، وقسيٍّ ورِماح، وغيرها من عدَّة الحرب، ثمَّ بيان ثيابه، وما له مِن قميصٍ وعمامة، وبردة ونعلٍ، ومَن أَهدى له أو أُهدِي إليه، وأبرز الكُتَّاب في هذا المجال: ابن القيم في كتابه: "زاد المعاد في هدي خير العباد" الجزء الأول.

أما الجانب الاجتماعي في السيرة فقد حفت كتب السنة المشهورة والمسانيد، على كل ما يتعلق بها، ومع الأسف قل من انتبه لهذا الجانب، وكثر الكلام حول أهميته وقل من كتب فيه.

أهمية تعلُّم السيرة النبوية:

كان الصحابةُ يعلِّمون السيرةَ النبوية لأبنائهم، وأهمَّ الدروس والعِبَر المستخلصة من أحداثها، ولذا كان يقول إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: "كان أبي يعلِّمنا المغازيَ، ويعدُّها علينا، ثم يقول: "يا بَنيَّ، هذه مآثِرُ أجدادِكم، فلا تضيّعوها"، وكان زين العابدين علي بن الحسين يقول: "كنا نُعلَّمُ مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، كما نُعلَّم سُوَر القرآن"، وقد نظم عبدالرحمن بن حسان مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدةٍ له؛ لمَّا رأى حرصَ أبناء الأنصار على تعلُّمها، ومن هنا يتَّضح وجوب تعلُّم السيرة والاختصاص بها؛ لِما لها من ارتباطٍ وَثِيق بكتابِ الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

القدوة الحسنة:

قال رب العزة: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) [الأحزاب: 21] ولذا وجب علينا تعلم سيرته والاقتداء بأخلاقه طلبا لرضى الله، وقد كان النبي أحسن الناس أخلاقاً، وأعلاهم فضائل وآداباً، امتاز بذلك في الجاهلية قبل عهد النبوة فكيف بأخلاقه بعد النبوة، وقد خاطبه ربُّه تبارك وتعالى بقوله له: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]. لقد أدَّبهُ ربُّه فأحسن تأديبه، وربَّاه فأحسن تربيته، فكان خُلُقهُ القرآن الكريم، يتأدب به، ويؤدب الناس به، فمن أخلاقه الكريمة:

أنه كان أحلم الناس، وأعدلهم، وأعفَّهم، وأكرمهم، وأشجعهم. وكان أشدّ الناس تواضعاً؛ يصلح نعله بنفسه، ويخيط ثوبه، ويُعِين زوجته في المنزل ويساعدها. يجيب الدعوة من أيّ أحد، ويقبل الهدية ولو قَلَّت، ويكافئ عليها، وكان يغضب لربّه، ولا يغضب لنفسه، وكان يجوع أحياناً فيعصب الحجر على بطنه من الجوع، وأحياناً يأكل ما حضر، ولا يردُّ ما وجد من المباح، ولا يَعيب طعاماً قط إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه. وكان يلبس ما وجد من المباح، ويركب ما تيسَّر؛ مرة فرساً، ومرة جملاً، ومرة بغلة، ومرة حماراً - وهي وسائل الانتقال في عصره- أو يمشي راجلاً حافياً. يجالس الفقراء، ويأكل مع المساكين، ويصل ذوي

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

القرابة والرحم من غير أن يُميّزهم على من هو أفضل منهم. ولم يكن قاسياً، ولا غليظاً، ولا عالي الصوت في الأسواق، وما كان يقابل السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ويقبل معذرة من اعتذر إليه. يمزح ولا يقول إلا حقاً، ويضحك من غير قهقهة. وكان أشد الناس حياءً. وكان يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس. لا يحتقر فقيراً لفقره، ولا يهاب مَلِكاً لِمُلْكِهِ. وكان من خُلُقه أنْ يبدأ مَنْ لقيه بالسلام، وإذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ولا يأتيه أحد إلا قام معه في حاجته. يتودد إلى صحابته إكراماً لهم، واستمالة لقلوبهم. وكان أرحم الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

وكان يحب اليسر، ويكره العسر، ولا يواجه أحداً بما يكره، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه. وكان لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه. هذه بعض أخلاقه الكريمة، وصفاته الجميلة فتبارك مَنْ أدَّبه وعلَّمه وربَّاه.

خصائصه:

لقد خص الله تبارك وتعالى نبينا محمدًا بكثير من الخصائص والمناقب التي فضَّله بها على غيره من المرسلين، وميَّزه بها عن سائر العالمين. وقد أشار النبي إلى هذه المنحة الربانية، وتلك المنّة الإلهية فقال: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...) [رواه البخاري ومسلم] . وفي رواية: (فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ...) [رواه مسلم]. وفي رواية: (أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاء...) [رواه أحمد بإسناد حسن]. وفيما يلي نعرض لأهم هذه الخصائص:

- عموم رسالته لكافة الثقلين من الجن والإنس: فلابد لهم من إتباعه والإيمان برسالته؛ قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبأ: 28]. وقال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) [الفرقان: 1]. وقال النبي: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [رواه البخاري ومسلم].
- أنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده؛ قال الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب: 40]. وقال النبي: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ) [رواه البخاري ومسلم].
- أنَّ أمته خير الأمم، وأكثر أهل الجنة؛ قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) [آل عمران: 110]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ) [رواه البخاري ومسلم].
- أنه سيد ولد آدم يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) [رواه مسلم].
- أنه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة: وذلك عندما يشفع للناس في أن يقضي بينهم ربهم، وذلك بعد أن يطلب الإعفاء منها أفضل الرسل. وهذه الشفاعة هي المقام المحمود المذكور في قوله تعالى: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) [الإسراء: 79].

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

إلى غير ذلك من خصائصه ومناقبه الكثيرة، والتي تدلُّ على علو درجته عند ربه، وسمو مكانته في الدنيا والآخرة.

حقوقه على أُمَّته:

يجب على الأُمَّة تجاه النبي أمور كثيرة؛ قياماً بحقه، ومن ذلك:

- وجوب الإيمان بأنه بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، فما من خيرٍ إلا ودلّ الأمة عليه ورغبها فيه، وما من شر إلا ونهى الأمة عنه وحذرها منه. قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا) [المائدة: 3]. وفي حجَّة الوداع خطبهم خطبة بليغة؛ بيّن لهم فيها ما أوجبه الله عليهم، وما حرَّمه عليهم، وأوصاهم بكتاب الله إلى أن قال لهم: (وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ) [رواه مسلم]. وقال أبو ذر رضي الله عنه: (لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا) [رواه أحمد وهو حديث حسن بمجموع طرقه].
- محبته: وتقديمها على محبة النفس والولد والناس أجمعين؛ قال: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [رواه البخاري ومسلم]. ولمَّا قال عمر للنبي: (يَا رَسُولَ الله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ: لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَالله لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ: الآنَ يَا عُمَرُ) [رواه البخاري].
- تعظيمه وتوقيره وإجلاله: فإن هذا من حقوق النبي التي أوجبها الله في كتابه. قال تعالى: (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) [الفتح: 9]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُعزّروه: أي تُجِلّوه. وتوقروه: أي تُعظّموه. وتعظيمه واجب بعد موته كتعظيمه في حياته؛ وذلك عند ذكره، وذكر حديثه وسنّته، وسماع اسمه وسيرته.
- الصلاة والتسليم عليه، والإكثار من ذلك كما أمر الله سبحانه بذلك؛ قال تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: 56].
- تَجَنُّب الغُلو فيه والحذر من ذلك؛ فإن في ذلك أعظم الأذية له. قال الله تعالى آمراً نبيّه أن يخاطب الأمّة بقوله: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف: 110). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ) [رواه البخاري]. والإطراء – كما جاء في لسان العرب -: هو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في المَدْحِ. وفي هذا تحذير منه من الغلو فيه وإنزاله منزلة يختص بها الربُّ عز وجل.
- محبة أصحابه وأهل بيته وأزواجه وموالاتهم جميعًا والحذر من تَنقّصهم أو سبّهم أو الطعن فيهم بشيء؛ فإن الله تعالى قد أوجب على هذه الأمة موالاة أصحاب نبيه وحَثَّ مَنْ جاء بعدهم على الاستغفار لهم، وسؤال الله ألا يجعل في قلوب المؤمنين غلاً لهم. فقال بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر: 10]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (لاَ تَسُبُّوا أصحابي لاَ تَسُبُّوا أصحابي فَوَالَّذِي نفسي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ) [رواه البخاري ومسلم].

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

المناقشة:

- ما هي أبرز حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا اليوم؟

موطن الرسالة المحمدية:

كان موطن الرسالة والرسول الجزيرة العربية، وقد كانت تمتد من البحر الأحمر شرقًا حتى الخليج العربي غربا، ومن المحيط الهندي جنوبا إلى بادية الشام في الشمال، وقد عرفت الجزيرة العربية عدد من الحضارات القديمة، مثل حضارة سبأ في الجنوب، والتي ورد ذكرها في كتاب الله، وقد انهارت بعد انهيار سد مأرب، وحضارة عاد وثمود في الغرب والشمال، وقد ورد في قصص الأنبياء قصة ما أصابهم من تدمير بعقاب من الله. وفي الوسط كانت البادية التي حوت عدد من القبائل التي غلب على أكثرها الحركة والتنقل وراء موارد المياه والمراعي.

وفي عصر ما قبل البعثة المحمدية عرفت عدد من الحواضر، مثل حاضرة اليمن التي كانت تتبع واحدة من أقوى دول ذاك الزمان وهي الإمبراطورية الرومانية، ثم استقل بها أحد القادة العسكريين، وأراد أن يجبر العرب على التوحد تحت قيادته، ولهذا بنى بيتا لكي يجمع العرب على التوجه له بديلا عن بيت الله الحرام، ولما فشل قرر أن يقود جيشا وضم له فيلا ضخما لهدمه، وهي القصة التي وردت في كتاب الله في سورة الفيل، وسنعرض لها في سطور قادمة.

وفي الشمال من الجزيرة استقرت دولتان، دولة الحيرة وهي متحالفة مع القوة الثانية في عالم هذا الزمان وهي إمبراطورية فارس، ودولة الغساسنة وهي متحالفة مع إمبراطورية الرومان، وفي وسط منطقة الحجاز اشتهرت مدن قليلة، على رأسها مكة، وتسكنها قبيلة قريش، وهي مقر بين الله الحرام، وإليها يحج العرب جميعا كل عام، وتقوم حياتهم على التجارة الداخلية وقت الحج، ورحلات تجارية للدول المحيطة بهم. ومدينة يثرب التي استقرت بها بعض القبائل العربية وغير العربية لصلاحية أرضها للزراعة، وتسكنها بشكل أساس من العرب قبيلتي الأوس والخزرج، ومعهم قبائل يهودية استقرت بها في انتظار ظهور نبي فيها.

المناقشة:

- هل وصف الجاهلية يعني الجهل، ناقش هذا في ضوء ما تعرفه عن حال جزيرة العرب قبل الإسلام؟

مولد الهدى والنور:

في بدايات عام 571م، شهدت مكة زلزالاً عنيفًا، إذ وقف على مشارفها قوات أبرهة القائد العسكري اليمني، ومعها فيلا ضخما، وقد جاء ابرهة بغرض واحد، هو تدمير بيت الله الحرام، ومحو مكة التي يحج لها العرب، وفشلت كل محاولات القبائل العربية وقف تقدمه سواء عسكريًّا أو تفاوضيًّا.

ولكن مكة على وشك أن تستقبل حدثا كبيرا آخر، إذ كان في أحد بيوته امرأة على وشك الولادة، لا تستطيع الهروب مع الهاربين، وهي آمنة بنت وهب، التي فقدت زوجها بعد شهور قليلة من بدء حملها، ولم تفلح محاولات حموها عبد المطلب زعيم قريش في وقف هذا الزحف الغاشم، وتركها وخرج للجبال، ولم يتبق أحد يحميها من الرجال، والبيت الذي يؤويها في طريق هذا الجيش، وعجزت كل أسباب البشر عن صد هذا الهجوم، ولم يبق لبيت الله الحرام، ولهذه المرأة وجنينها، إلا الله.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

قد تعرض بيت الله الحرام للهجوم قبل البعثة المحمدية وبعدها، بل تعرض في زمن قديم للتدمير الكامل وكل ما حوله، وقد أرسل رب العزة إثنين من أنبيائه المكرمين ليقوموا على أمر إعادة البناء من القواعد القديمة، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة:127]، ومن ثم لم تكن هذه المرة الأولى لبيت الله الحرام، ولكن الذي اختلف هذه المرة هو هذا المولود المنتظر، ولذا كان التدخل الإلهي الأول لإنقاذ البيت ومن حوله، تدخل ليس بنصر قوة بشرية على القوة الغاشمة، ولكن تدخل إلهي صرف، وهو المعروض في كتاب الله في سورة الفيل: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5)) [الفيل]، ومن ثم كان القضاء على الهجوم الغاشم بشكل كامل، وإنقاذ لبيت الله الحرام ولكل من حوله، ولهذه المرأة آمنة بنت وهب، لكي تضع مولودها في أمان، في أبريل من عام 571م الموافق شهر ربيع الأول من عام 53 قبل الهجرة.

تحكي كتب السيرة عن عدد من المظاهر الكبيرة التي صاحبت مولده صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يسلم شيء منها من النقد، ويكفي الآية الكبرى في إنقاذ مكة من التدمير، ولكن مما صح أيضا رواية أحد الصحابة الكرام وهو حسان بن ثابت، وفي نفس هذه الشهور من عام 571 ميلادية، روى أنه وهو ابن ثمانية أعوام، قد عاصر نداء أحد علماء بني إسرائيل في يثرب في الليل على قومه، وظل يصرخ حتى اجتمع حوله عدد كبير منهم، وأعلن عن ظهور النجم الأحمر وهو نجم لا يظهر إلا عند بداية زمن نبي جديد، وهو في هذه المرة نجم أحمد، ففرح بهذه البشارة اليهود، ولكنهم اتفقوا على كتمانها، ولكن الطفل الذي كان بينهم حفظها وقصها فيما بعد.

نسب الرسول:

لابد لنا أن نذكر اسم المولد الجديد وبيان نسبه الممتد حتى نبي الله إسماعيل عليه السلام، ألا وهو:

محمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وفهر هذا هو قريش عند الأكثرين وهو الجد العاشر للرسول.

وفهر هو ابن مالك بن النضر ويرى بعض الباحثين أن النضر هو قريش.

والنضر هو ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان وعدنان هو الجد العشرون للرسول. وينتهي نسب عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

كلمة عن أجداد الرسول:

قريش:

قريش هو الجد العاشر للرسول كما ذكرنا، وكان قريش يكفي حاجة المحتاج، وكان ملجأ المظلوم والطريد والخائف.

قصي:

وقصي الجد الرابع للرسول، وهو الذي استعاد سلطان أجداده على الحرم؛ إذ أخرج خزاعة من مكة، وكانت خزاعة قد سلبت السلطة من أبناء إسماعيل، وسيطرت على مكة ردحًا من الزمن، فلما شب قصي أعلن أنه أحق بالسلطة على مكة، لأنه من نسل إسماعيل الذي رفع مع أبيه قواعد البيت، والذي نبع له ماء زمزم، وقد حقق قصي مأربه، ثم بنى دار الندوة ورتب وظائف الكعبة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

هاشم:

وهاشم هو الجد الثاني للرسول صلوات الله عليه، وكان يتولى السقاية والرفادة وكان اسمه عمرًا، وسمي هاشمًا لأنه كما تقول الرواية كان يتلقى معونات من قريش لإطعام فقراء الحجاج، ولكن حدث عام مجاعة فلم يكلف هاشم بني قومه شططًا، وأخذ كل ما له وذهب إلى الشام فاشترى كمية كبيرة من الكعك الجاف وعاد به فهشمه هشمًا ليجعله صالحًا لأن يكون ثريدا، فسمي الهاشم.

وكان هاشم سفير قريش لدى الملوك، ومر الذي عقد حلفًا تجاريًّا باسم قريش بينها وبين هرقل ملك الروم لتذهب تجارة قريش آمنة إلى الشام، وكثيرًا ما كان يقود التجارة بنفسه إلى الشام، ومات هاشم في إحدى رحلاته التجارية وهو عائد إلى مكة، وكانت وفاته في غزة[27].

المطلب أخو هاشم:

والمطلب أخو هاشم، وكان أصغر منه سنًا، وبعد موت هاشم تولى المطلب السقاية والرفادة وكان ذا فضل وشرف في قومه، وكانت قريش تسميه «الفيض» لسماحته وفضله.

شيبة (عبد المطلب):

وكان هاشم الذي سبق الحديث عنه قد قدم المدينة «يثرب» فتزوج سلمى بنت عمرو من بنى عدي بن النجار، وكانت امرأة ذات شأن ومكانة، فكانت لا تتزوج إلا إذا كان أمرها في يدها، وقد ولدت لهاشم ولدًا سمي «شيبة» وتركه هاشم مع أمه بيثرب حتى شب وأصبح غلامًا، فلما مات هاشم خرج أخوه المطلب إلى المدينة ليحضر ابن أخيه لمكة ليعيش بين قومه وأهله، وقد تمسكت أمه به أولًا، ولكن المطلب صاح بها قائلًا: نحن أهل بيت كريم، لنا شرف في قومنا، نلي أمورهم ونحمل تبعاتهم، وقومه وأهله أولى به، فاستجابت أمه لذلك وأسلمته.

ودخل به المطلب مكة وقد أردفه خلفه، فظنت قريش أنه عبد اشتراه المطلب فقالوا «عبد المطلب» فقال المطلب: ويحكم إنه شيبة ابن أخي ولكن لقب عبد المطلب غلب عليه[28].

ومات المطلب فأخذ عبد المطلب ابن أخيه هاشم مكانه وتولى السقاية والرفادة، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم، وبلغ في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم فيهم[29].

المناقشة:

- ماذا تعني البشارات التي جاءت قبل ومع مولد الرسول صلى الله عليه وسلم؟
- ما تأثير نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في نبوته؟

محمد في كفالة جده عبد المطلب:

ذكرنا من قبل أن عبد الله والد محمد مات وأمه حامل به بشهور قليلة، وبهذا لم ير محمد أباه فكفله جده عبد المطلب، وأنه لما تمت ولادة محمد -وكانت قد تمت بكل اليسر كما تؤكد الروايات التاريخية-

[27] ابن هشام 1: 125.
[28] ابن هشام 1-126-127.
[29] ابن هشام 1-131.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

أرسلت آمنة إلى جده عبد المطلب بذلك، فأسرع إليها، وفرح بالمولود أشد الفرح، وتقول الرواية إن عبد المطلب أخذه إلى الكعبة وطاف به وشكر الله أن منحه عوضًا عن ابنه عبد الله.

رضاعته عليه السلام من حليمة السعدية:

تمنت السيدة آمنة أن يتاح لابنها ما يتاح لأبناء السادة من قريش من الحياة بالبادية مع إحدى المرضعات لتقوى عظامه، وتتمكن شخصيته الاستقلالية، ولينعم بسلامة الجو، وينشأ على سماع اللغة العربية الفصحى... فطلبت من عبد المطلب أن يحقق لها هذا الأمل، وكان عبد المطلب شديد الحرص على تلبية رغبات آمنة لعله يجبر خاطرها إذ أنها فقدت زوجها بعد حياة قصيرة معه.

وسرعان ما دخل عبد المطلب على آمنة ومعه امرأة أعرابية هي حليمة ابنة أبي ذؤيب من بنى سعد.

وتقول حليمة السعدية إنها خرجت من موطنها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، وكانت ضمن نسوة من بني سعد يلتمسن الرضعاء.

وتقول حليمة إن ذلك كان في سنة عجفاء، وقد خرجتُ على ناقة نحيلة، وليس بثديي حليمة لبن يذكر من قلة الطعام، وكان ما بثديها من اللين لا يكاد يغني ابنها الذي حملته معها، وتستمر عليمة قائلة: قدمنا إلى مكة، وعرض محمد بن عبد الله على أكثر المرضعات فأبين أخذه لأنه يتيم، والأمل قليل في عطاء أمه وجده، واستطاعت كل مرضعة أن تجد رضيعًا، ولم يبق إلا أنا، فلما أوشكنا على العودة، قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع بين صواحبي بدون رضيع، وأشرت عليه أن نأخذ الطفل اليتيم، فوافق على ذلك، فذهبت إليه وأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره.

وتقول حليمة ورجعت به إلى رحلي، وسرعان ما امتلأ ثدياي باللبن، وشرب حتى روى، وشرب ابنى حتى روى كذلك ثم ناما، واتجه زوجي إلى ناقتنا فإذا باللين يكاد يقطر من ضرعها، فحلب منه ما قضى حاجتنا.

وفي طريق العودة كانت ناقتنا أسرع النوق سيرًا، حتى ظنت صواحبي أنها ليست الناقة التي وفدنا عليها، ولكني قلت لهن: إنها والله هي هي.

وفي دورنا رأيت كل شيء في حياتنا قد تغير، فأغنامنا سمنت، وفاض لبنها: وحياتنا قد ملأها السرور والخير، ولما انتهت فترة الرضاعة، قدمنا به إلى مكة ونحن نأمل أن نعود به مرة أخرى، فكلمت أمه في ذلك وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ؟ فإني أخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردته معنا.

ثم حدثت أحداث غير عادية فيها يمن وبركة للرسول صلوات الله عليه خلال إقامته في بني سعد مما جعل حليمة تخاف عليه فردته إلى أهله، إشفاقًا منها عليه.

محمد في بيت أبي طالب:

أوصى عبد المطلب وهو في النزع الأخير أولاده بمحمد وطلب منهم أن يعوضوه ما فقد من حنان أبيه وأمه وجده، وذكر لهم أنه يتوقع لمحمد مستقبلًا عظيمًا، ويخشى عليه من الحساد والأعداء، وطلب منهم مساعدته بكل ما يستطيعون

وقد انبرى أبو طالب آنذاك يطمئن والده على محمد، وكان أبو طالب أخًّا شقيقًا لعبد الله ولذلك كان أرحم أعمام النبي صلى الله عليه وسلم به؛ وأولاهم برعايته، وتوفى عبد المطلب عقب ذلك وكانت سن الرسول ثماني سنوات.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وانتقل محمد إلى بيت أبي طالب، وكان هذا رجلًا شهمًا كثير العيال، وأقبل على محمد وفضله على كل أبنائه، وأظهر محمد قناعة وأدبًا فزاد حب أبي طالب إليه، وكان طعام محمد مع عمه غالبًا وليس مع أبناء عمه.

راعي الغنم «الأمين»:

ولما شب محمد أخذ يرعى غنم عمه أبي طالب، وكان مثالًا للراعي الأمين، يهتم بأغنامه رعيًا وسقيًا، فإذا مرضت إحداها عمل بجد على رعايتها وعلاجها، فكثرت أغنام أبي طالب وعظمت؛ مما جعل بعض أهل مكة يطلبون أن يضموا أغنامهم لأغنام أبي طالب طلبًا للنماء والخير، ولما ظهر لهم حرص محمد على حسن أداء العمل وحسن رعايته لأغنامه أطلقوا عليه لقب «الأمين».

وكان هناك رعاة آخرون يخرجون بأغنامهم للرعي، ولكن محمدًا لم يكن كثير الاختلاط بهم، ولم يقدم على ما كانوا يعملون من نزوات. وحدث مرة أن أراد محمد أن يشارك أترابه ما كانوا يقومون به من مسرات وسهرات، وهو يروي ذلك عندما أصبح نبيًّا، فيقول:

ذهبت حتى أتيت دارًا من دور مكة، وسمعت العزف والغناء، ولكن سرعان ما شملني النوم، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس. وكررت ذلك مرة أخرى فحدث نفس الشيء، فو الله ما عدت لذلك بعدها حتى أكرمني الله عز وجل بالنبوة.

قصة بحيرى الراهب:

وخرج أبو طالب مرة في تجارته للشام وصحبه محمد، فحدث حادث مهم ترويه كتب السيرة والتراث، ففي الطريق إلى الشام نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وكان بها راهب يسمى بحيرى، وكان له علم بالكتب المقدسة، كما كان راهبًا يعيش في الصومعة التي كان يعيش بها الرهبان.

وكان من عادة بحيرى ألا يهتم بالقوافل التجارية، فليس له بها شأن، ولكنه في هذه المرة أبدى اهتمامًا كبيرًا بقافلة قريش، إذ رأى غمامة تسير مع القافلة وتقف إذا وقفت القافلة، وكان ذلك دليلًا يفسر ما يجده بحيرى من قرب ظهور نبي آخر الزمان، ومن صور إكرام الله له، فأراد بحيرى أن يستوثق من أن بالقافلة نبي آخر الزمان، فأقام مأدبة كبيرة دعا لها كل تجار القافلة، وطلب منهم ألا يتخلف أحد عن الحضور.

ودهش تجار القافلة من صنع بحيرى، فلم يكن من عادته أن يحتفي بهم.

وحضر التجار إلى مكان المأدبة إلا محمدًا لصغر سنه، فقد بقي يحرس الرحال والسلع، ورأى بحيرى أن الغمامة لا تزال هناك عند المكان الذي نزلت به القافلة، ولم تصحب الغمامة القوم إلى بيت بحيرى، فسألهم: هل بقي منكم أحد لم يحضر مأدبتي؟ فقالوا: حضرنا كلنا إلا غلامًا واحدًا تركناه عند الرحال. فقال: لا بد من إحضاره وسأرسل من رجالي من يحرس متاعكم، وحضر محمد.

استقبل بحيرى محمدًا وسأله باللات والعزى أن يصدقه فيما سيسأله عنه، فصاح به محمد: لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فو الله ما أبغضت شيئًا قط بغضي لهما.

فأدرك بحيرى مكانة محمد وأكبره، وعاد يسأله: بالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له محمد: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، ومحمد يجيب حتى استوثق بحيرى من أنه أمام رسول آخر الزمان.

وحينئذ اتجه بحيرى إلى أبي طالب وسأل: ما هذا الغلام منك؟

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

قال أبو طالب: هو ابني.

قال بحيرى: ما هو ابنك، وما ينبغي أن يكون لهذا الغلام أب حي.

قال أبو طالب: أنه ابن أخي، مات أبوه وأمه حامل به.

فرد بحيرى: صدقت، ارجع بابن أخيك واحذر عليه من اليهود، فو الله لو عرفوا عنه ما عرفت لأوقعوا به شرًا[30].

محمد يشترك في حرب الفجار:

وعندما كانت سن محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى، وقد حضر الرسول هذه الحرب ويروى عنه قوله: كنت أنبل على أعمامي يوم «الفجار» وأنا ابن أربع عشرة سنة أي أناولهم النبل وسُميت حرب الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التي سبق ذكرها: قريش وكنانة وهوازن[31].

محمد يتاجر بمال خديجة:

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد سيدة ذات شرف ومال، وكانت تستأجر الرجال للعمل في مالها وتجعل لهم شيئًا نظير ذلك، إما مضاربة أو أجرًا، فلما بلغها عن -رسول الله صلى الله عليه وسلم-، ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى لمن سبقه من الرجال الذين عملوا في مالها.

فقبل محمد ذلك وسار في ركب التجارة ومعه غلامها ميسرة، ويقول ميسرة إن راهبًا اسمه (نسطورا) اعترضه في مكان نزلت به القافلة للاستراحة، وسأل الراهب ميسرة: من هذا الرجل، فقال له ميسرة: إنه رجل من قريش أهل الحرم.

فقال الراهب: إن لهذا الغلام لشأنًا[32].

ووصلت التجارة إلى الشام، وباعها الرسول فربحت كما لم تربح تجارة من قبل، واشترى محمد من سلع الشام تجارة عاد بها، وفي مكة بيعت هذه التجارة بضعف ثمنها فكان في ذلك ربح وفير.

وتحدث ميسرة لخديجة لا عن الربح فحسب، بل عن شرف محمد وأمانته، وعن كلام الراهب، فكان لهذا الكلام وهذه المعاملة وقع عميق في قلب خديجة أدى إلى الزواج بها كما سترى فيما يلي:

زواجه عليه السلام من خديجة:

تحدثنا السيرة[33] أن خديجة كانت امرأة شريفة نبيلة، وكانت من أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، فلما أخبرها ميسرة بما لاحظه على محمد خلال رحلة التجارة قررت خديجة أن تخطب محمدًا لنفسها بطريق غير مباشر، فأرسلت إليه امرأة ذكية اسمها «نفيسة بنت منبه» ودار بين هذه المرأة وبين محمد الحديث التالي:

نفيسة: لماذا يا محمد لا تقدم على الزواج؟

---

[30] ابن هشام 1-165، 167.
[31] العقد الفريد لابن عبد ربه جـ5 من 251 وما بعدها.
[32] ابن هشام جـ1 ص 172.
[33] المرجع السابق ونفس الصفحة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

محمد: تكاليف الزواج يا أماه لم تيسر لي بعد.

نفيسة: وماذا يا محمد لو كفيناك هذه التكاليف، واقترحت عليك امرأة من أعظم سيدات قريش حسبًا ومالًا؟

محمد: ومن تكون هذه السيدة؟

نفيسة: خديجة بنت خويلد.

محمد: إني أعرف أن كثيرين تقدموا إليها ورفضت الزواج.

نفيسة: إذا قبلت أنت يا محمد كان عليّ أن أكمل الموضوع.

وتم الاتفاق على أن يتم زواج بينهما، وخطب أبو طالب خديجة لابن أخيه، وقدم لها عشرين ناقة لتكون مهرًا لها، وألقى أبو طالب خطبة في أهل خديجة قال فيها: إن محمدًا ابن أخي شاب لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفًا وخلقًا، وإن كان قليل المال فالمال ظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وقد ساق محمد إليها عشرين ناقة مهرًا.

فقام عم خديجة ورد على الخطبة بقبولها وبارك الزوجين، وأقيم حفل الزواج فنحرت الذبائح وأطعم الناس، وفتحت دار خديجة أبوابها لتولم الولائم وتستقبل رءوس العشائر مهنئين، وضم بيتها الكريم أعظم زوجين.

ومما يذكر أن الزواج كان يتم في بيت الزوجة فيقيم الرجل في بيت زوجته عدة أيام ثم يأخذ زوجته إلى داره، ولكن خديجة طلبت من الرسول أن يبقى في بيتها الواسع، وأن يدير تجارتها ويشرف على أموالها فقبل.

وكان الرسول عند الزواج في الخامسة والعشرين وكانت السيدة خديجة أكبر في العمر منه، حيث تزوجت قبله مرتين[34].

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود:

عندما كان الرسول صلوات الله عليه في الخامسة والثلاثين من عمره اجتمعت قريش لبناء الكعبة تقول الرواية إن العرب ترددوا في هدمها، وهابوا ذلك، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأ بهذا العمل، وأخذ المعول وبدأ الهدم وهو يقول: اللهم إنا لا نريد إلا الخير، وبعد ذلك تقدم الناس وساعدوا الوليد حتى انتهى الهدم إلى الأساس الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد.

ووضعت قريش دستورًا لبناء الكعبة حدده الوليد بن المغيرة بقوله: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل في بنائها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ولما ارتفع البناء اختلفت قريش في وضع الحجر الأسود في مكانه واختصموا في ذلك، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، واشتد الأمر، واستعد القوم للقتال: وهنا صاح أبو أمية بن المغيرة، وكان أكبر قريش سنًا فقال: يا معشر قريش حكموا في هذا الأمر أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضي بينكم. فارتضوا هذا الرأي.

وبعد قليل دخل الرسول عليهم من هذا الباب، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، وأخبروه الخبر، فقال: هلم إليّ ثوبًا، فأتِيَ به، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثم قال: لنأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه وأرضى الجميع[35].

[34] ابن القيم - زاد المعاد 1- 18.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

أخلاق محمد قبل البعثة:

اتفق المؤرخون على أن محمدًا لم يعبد صنمًا قط، وبغضت إليه الأوثان ودين قومه[36]، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكر في الكون وصانعه، وكان يمكث في غار حراء من كل سنة شهرًا[37]. واستمر كذلك حتى عبد الله على دين إبراهيم الخليل الذي كان يدين به بعض العرب الذين لم يقبلوا عبادة الأوثان مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وأمية بن أبي الصلت. وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التي كان يغرق فيها شباب العرب في ذلك العهد[38].

ولم يكتف محمد قبل الإسلام بالبعد عن الأصنام، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع لذلك سبيلًا، يروى زيد بن حارثة أنه ذهب مع الرسول مرة للطواف بالبيت، وكان لقريش صنمان يتمسح بهما للعرب، فطاف محمد ولم يتجه للصنمين، أما زيد فقد تمسح بهما كما كان يفعل سواه من الناس، فقال له محمد: لا تمسسنهما يا زيد فدهش زيد من ذلك وقرر أن يمس الصنمين مرة أخرى ليتأكد له موقف محمد من ذلك، ومسح زيد الصنم في طواف آخر، فنهره محمد قائلًا: ألم تنته؟ قال زيد: الآن قد انتهيت.

ومما سبق نفهم أن محمدا كان يبني مكانته الخاصة بين الناس، فلم يكتف بما له من مكانة لنسبه، ولكنه عرف بين الناس بصدقه وأمانته التي مثلت عاملا مهما في عمله على إنماء ثروة زوجته التي تضاعفت معه بسبب صفاته التجارية من الصدق والأمانة، ثم أضاف لها بعمله بين المجتمع على تمكين وضعه، وهو الذي يظهر واضحا من كلمات زوجته السيدة خديجة عندما نزل عليه الوحي، فوصفته بهذه الصفات التي صنعت مكانته الاجتماعية بين الناس، إذ قالت: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

المناقشة:

- كيف عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بناء مكانته في مجتمعه قبل البعثة؟
- ما هي الأعمال التي احترفها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة؟

بعثة الرسول:

هيأ مال خديجة الرسول فرصة ليتفرغ للعبادة {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} (الضحى: 6- 8). وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر في الكون، ومنحه الغنى فرصة للفراغ والمزيد من التفكير، ومنحه تقدم سنه مزيدًا من العمق، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيدًا من الصفاء، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام. فيأخذه ويذهب إلى غار حراء، حيث يخلو ليفكر في الكون وخالقه، والموت ومصير الناس بعده وهكذا، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف.

بدء الوحي:

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين من العشر الأواخر من شهر رمضان، وضمه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له:

---

[35] الأزرقي: أخبار مكة ص28، 29.

[36] زاد المعاد جـ1: ص18.

[37] ابن هشام جـ1: ص153.

[38] نفسه

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

اقرأ.

فأجاب الرسول: ما أنا بقارئ.

فعاد جبريل نفسه بشدة ثم أطلقه وقال له: اقرأ.

فأجاب الرسول وقد أرهقه الصم والخوف: ما أنا بقارئ.

فصمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه وقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 1-5].

وكانت هذه أول آيات تنزل من القرآن الكريم[39]، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمدًا بدعوة، ولم تكلفه برسالة، ولم تكن إلا إعلامًا بشيء غير عادي لم يدرك محمد كنهه عند وقوعه، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة ما رآه، وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فهدأت خديجة من روعه، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبدًا، ولم تعرف خديجة كزوجها حقيقة هذه الحالة، ولذلك أشارت عليه أن يذهبا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخًا جليلًا واسع الاطلاع عميق الخبرة: فاستجاب الرسول لرأيها وذهبا إليه حيث قص محمد قصته. فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي ينزل على الأنبياء، ويا ليتني أكون معك حين يخرجك قومك. فسأله محمد: أو مخرجي هم؟ فأجاب ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار، فسمع مرة وهو يمشي صوتًا، فرفع رأسه للسماء، فرأى جبريل على نحو ما رآه في الغار، فهاب المنظر وارتعب، ورجع إلى بيته في حالة من الخشية؛ وقال لأهله: دثروني دثروني: فدثروه؛ وجاءه جبريل وهو في هذه الحالة فألقي إليه نداء ربه: (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [المدثر: 1-7].

فكانت هذه الآيات هي الآيات الأولى التي كلفت الرسول بالدعوة، واتضح بها ما كان غامضًا، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير.

وبدأت بذلك رسالة محمد، تلك الرسالة التي وضعت حدًا لعصر الجاهلية، وافتتحت عصرًا جديدًا للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام، ومن الواضح أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل، فقد كان في الجزيرة العربية حضارة، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط في المسائل الدينية، فجاء الإسلام ليضع حدًا لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد.

ويروى أن الرسول كان يتصبب عرقًا عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه، فقالت السيدة خديجة له: استرح يا محمد قليلًا، ولكن الرسول قال لها: لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة، ونهض ليؤدي واجبه تجاه الدعوة.

المناقشة:

- أين وكيف بدأ الوحي؟
- ما هو أول تكليف نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[39] زاد المعاد 1: 19- 20.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

مراحل الدعوة

مما سبق فإن آيات سورة المدثر هى التى أمرت محمدًا أن ينذر الناس، وأن يدعوهم لدين الله، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد[40] وهذه المراحل ثلاث هي:

- المرحلة الفردية.
- دعوة بني عبد المطلب.
- الدعوة العامة.

وسنتحدث عن كل منها فيما يلي:

المرحلة الفردية:

هي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، وفيها دعا الرسول سرًّا أهل بيته، كما دعا خاصة أصدقائه، وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التي ذكرتها هذه الآية وهي الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان، فآمن به في هذه المرحلة زوجته، وابن عمه عليّ، وزيد مولاه، ثم دعا الرسول أبا بكر وكانت له به صلة منذ مدة فآمن به، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء[41]. وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات.

وإسلام أبي بكر يحتاج إلى مزيد من التفصيل، فقد كان صديقًا للرسول قبل البعثة، وكان يتردد على بيته، ويحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة، فلما اتجه محمد إلى الخلوة في غار حراء زاد أبو بكر تعلقًا بالرسول وإيمانًا بصفائه، فلما جاء الوحي للرسول بالآيات الأولى من سورة العلق ومن سورة المدثر ألتقى الصديقان، وسأل أبو بكر: لقد افتقدتك طويلًا يا محمد فكيف حالك؟

فسأله الرسول بالتالي: أتصدقني لو حدثتك بحالي؟

فقال أبو بكر: ومن سواك أصدق إذا لم أصدقك؟

فأخبره الرسول بخبر الوحي وقرأ له آيات سورة العلق وآيات المدثر، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذي أرجو أن يهتدي به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان.

وسرعان ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول، وسأله: ماذا أفعل لأصدقك؟ فأجابه محمد: تنطق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات.

ويقول الرسول: ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة (تردد) إلا أبا بكر.

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا.

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بني تميم قومه وقوم أبي بكر سخطوا على إسلامهما، وعبر نوفل بن خويلد الذي كان يدعى «أسد قريش» عن هذا السخط بأن تقدم، وربطهما في حبل واحد، وأخذ يشهر بهما، ولذلك سميا القرينين[42]، وظلت هذه التسمية شرفًا يحرص عليه طلحة.

---

[40] انظر زاد المعاد 1: 20.

[41] ابن هشام 1: 165 وزاد المعاد 1: 42-43.

[42] الرياض النضرة في تاريخ العشرة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وممن بكر بالإسلام من أقارب طلحة عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قتل في بدر مع المشركين، وأسر أخوه خالد بن عبيد الله في بدر أيضًا ومات أسيرًا[43] .

واتجه السابقون الأولون إلى أصدقائهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب لهؤلاء عدد من خيرة قريش مثل: سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وأم الفضل زوجة العباس، وأبي سلمة بن عبد الله المخزومي، والأرقم بن أبي الأرقم، الذي كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة، فاتخذها الرسول مقرًّا للدعوة السرية للدين الجديد، فكان يلتقي بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم.

ومن الذين استجابوا لدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص، وكان أبوه من أغنى القرشيين، ولإسلام خالد قصة جديرة بالذكر يرويها خالد بقوله: سمعت عن دعوة محمد وكنت مترددًا في قبولها، ثم رأيت فيما يرى النائم أنني على وشك أن أقع في هاوية فأدركني محمد وخلصني من الوقوع فيها، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرف على تفاصيل الدين الجديد، وسألت محمدًا السؤال التالي: إلام تدعو يا محمد؟

فقال -صلى الله عليه وسلم-: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجرٍ لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع.

وأدعو إلى الإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفسًا حرم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

وأن توفي الكيل والميزان بالقسط؛ وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوي قرباك، وأن تفي بما عاهدت».

قال خالد: فرأيت أن ما يدعو إليه حق، فأسلمت.

دعوة بني عبد المطلب:

هذه هي المرحلة الثانية من مراحل الدعوة، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء:214] فدعا بني عبد المطلب ليجتمعوا به، فلما حضروا قال لهم: إني ما أعلم شابًا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وبلغهم دعوته، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه، فقد هتف به أبو لهب قائلًا: تبًا لك، ألهذا دعوتنا؟ فنزل قوله تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) [المسد].

وكانت زوجة أبي لهب (أم جميل) أخت أبي سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بني هاشم امتدادًا للعصبية بين الجماعتين.

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد، ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي التي سنتكلم عنها فيما يلي:

[43] الدرر لابن عبد البر ص 52 و119 ترجمة أبي عبيدة.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

الدعوة العامة:

نزل قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر: 94]؛ فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهرًا كل طوائف الناس، يدعو السادة والعبيد، يدعو الأقربين والغرباء، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم في هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام أخو أبي جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية[44].

المناقشة:

- لماذا كان العالم في حاجة للدعوة الإسلامية؟
- ما هي أبرز مراحل الدعوة إلى الإسلام؟

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها:

بدأت الدعوة للإسلام سرًّا كما قلنا، وربما عرفت قريش أخبارها آنذاك، ولكن قريشًا لم تعلن العداء على محمد إبان هذه المرحلة السرية، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتنقها أفراد كثيرون، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبني عبد المطلب، فقد رأت هذه حالة داخلية في نطاق الأسرة، فلم تتدخل فيها، وكأنما اكتفت بمقاومة أبي لهب وأمثاله لها، ولكن ما إن بدأ الرسول يجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين، وسلكت كل السبل للقضاء عليه، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما سنسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التي جعلت قريشًا تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية.

أسباب المقاومة:

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين، وتلك الأسباب هي:

1- كان الرق منتشرًا في الجزيرة العربية انتشاره في كل بلاد العالم، وكان العبد مستعبدا في العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسماني، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده، ولا يحب أو يكره إلا تبعًا لحب سيده وكرهه، وكان جسمه خاضعًا لأوامر سيده، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب، وقرر أن العقل والقلب لا يتطرق لها الرق، فالرقيق حر في فهمه وتدينه وحبه وكراهيته، وأن رق الجسم غير مطلق، أي أن للرقيق حقوقًا لدى سيده في الطعام والكساء والزواج، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل.

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا. ورحب بهم محمد، واعتبر السادة هذا التصرف تمردًا من العبيد، كما اعتبروا محمدًا مثيرًا للفتن، وأنه لم يكتف بذويه يدعوهم لعقيدته بل راح يدفع الإسلام إلى بيوت السادة عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور.

2- كان الصراع في الجزيرة العربية يدور لأتفه الأسباب، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم، فما أجدرهم أن يهبوا في وجهه ليرضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب.

3- السيادة القبلية والتنافس عليها: لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة، أو بين النبوة وبين الملك؛ وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولقومه من بني عبد المطلب، وكانت

[44] ابن عبد البر: الدرر ص 47.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبني عبد المطلب وأن تفقد قبائلها المختلفة مكانتها وسيادتها.

4- المساواة بين السادة والعبيد: كان العرب يهمون بالطبقات اهتمامًا شديدًا، فلكل إنسان طبقته التي يجب ألا يتعداها، وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساسًا هامًّا من أسسها، وتسوي بين السيد وعبده، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه تقى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: 13]، ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا في هذا الدين الذي يهدم تقاليدهم، وأسس الحياة عندهم، ويسوي بينهم وبين العبيد الأذلاء.

5- الفزع من البعث: يقرر الدين الإسلامي أن هناك بعثًا بعد الموت وأن هناك حسابًا للناس، يكافأ المحسن فيه على إحسانه، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه، قال تعالى: (الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ) [القارعة].

وقال: (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس: 33-37].

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذي يعيد الإنسان للحياة بعد الموت، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه، ما أبشع الصورة التي تصورها زعماء قريش للإسلام، تلك الصورة التي دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه، إنها صورة العدالة التي لا يرضاها الظالم؛ وصورة الحساب الذي يفر منه المذنبون.

6- تقليد الآباء: كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم في العبادات والمعاملات شيئًا راسخًا عند العرب، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا دينًا جديدًا، وصاحوا في غباء وجمود (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) [المائدة: 104] فهزئ سبحانه وتعالى بقوله (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [المائدة: 107].

7- مع الأصنام: كان هذا السبب ماديًّا، فقد كان بين العرب من يحترف نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل، وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيرًا ما يشترونها للتبرك والذكرى. فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها، ووجد هؤلاء التجار في الإسلام حائلًا بينهم وبين أرباحهم وعاملًا يقضي على تجارة الأصنام بالكساد والبوار، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه.

ومما يتصل بهذا السبب المالي أيضًا إحساس سدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها. كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعًا بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها.

مراحل المقاومة:

كانت مراحل المقاومة ثلاثًا، إذ اتجهت أولًا إلى العبيد والضعفاء، وثانيًا إلى سواهم من المؤمنين، وثالثًا إلى الرسول نفسه، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلي:

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

1- العدوان على العبيد والضعفاء:

لم توجه قريش اهتمامًا ذا بال لمقاومة الإسلام في أول عهده كما قلنا، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة تفتر وتختفي بعد قليل من تلقاء نفسها.

ولكن سرعان ما بدأ لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يعدون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة، بعد أن وضح لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا للقلب، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محددة في ذلك أيضًا. لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء، لأن محمدًا إن كان حرًّا يقول ما يريد فهؤلاء في نظرهم ليسوا أحرارًا في أبدانهم ولا في عقولهم، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرمان من الطعام والشراب، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالصخور الساخنة، وتوضع فوقهم الحجارة المحماة الثقيلة، وقد مات ياسر وهو يعذب، ولما صرخت أمرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها[45]. وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم، وقد أعتق أبو بكر بلالًا وأمه حمامة، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسًا من النساء، ويقال إن فيه نزلت الآيات الكريمة (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى) [الليل: 17-21].

2- العدوان على كل المسلمين:

وتجئ، بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعًا من غير العبيد والضعفاء، إذ رأت قريش أن الدعوة راد انتشارها وانضم لها بعض الأشراف. وبدأ خطرها يظهر. فعم الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفًا للهجوم والإيذاء من المشركين مهما كانت مكانته في قريش، ومهما كان ثراؤه، ومهما كان جاهه وقوته، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أمجاد مثل أبي بكر وعثمان والزبير وأبي عبيدة، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم، ولكن الإذن باستعمال القوة – ولو للدفاع -لم يكن قد جاء بعد، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال، ولذلك احتمل المسلمون الأول ألوانًا من العسف والقسوة والطغيان أنزلتها بهم قوى الشر بمكة.

وقد أوذي أبو بكر إيذاء شديدًا على الرغم من سنه ومكانته في قريش، ولقد هم بالهجرة إلى الحبشة من شدة ما عانى، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فخجل أن يهاجر رجل مثل أبي بكر من مكة، فأعاده معه في جواره، ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن في وقت يعاني فيه باقي المسلمين ألوانًا من العنت والعذاب، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة وممن نزل به الأذى في هذه المرحلة عثمان بن عفان، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص في حجرة مظلمة وقيده بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيبقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه، ويترك إله محمد، ولكن عثمان أكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان، أما ما يعاني من قسوة فلا مناص من احتماله في سبيل الله.

وتعرض الزبير بن العوام إلى سخط عمه نوفل بن خويلد، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألوانًا حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذًا لهذا القسم وضعه نوفل في حجرة مظلمة مكتوف الأيدي وأطلق دخانًا كثيفًا بالحجرة حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التي هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل في إنزال العذاب بابنها.

[45] ابن هشام 1: 172، 202 وابن القيم 2: 43.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وإذا كانت صفية قد دافعت عن ابنها، فإن شابًّا مسلمًا آخر هو سعد بن أبي وقاص كانت أمه (حمنة بنت أبي سفيان) مصدر تعذيبه والتنكيل به.

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم يمسه إيذاء بذكر في هذه المرحلة لمكانة بني هاشم ومكانة أبي طالب الذي أخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذي وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلي، ثم نعود -بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة- إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء.

المناقشة:

- لماذا قاومت قريش الدعوة؟
- ما هي أشكال مقاومة؟

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

لما نزل الأذى بالمسلمين. وأصابهم البلاء من قريش، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأسى بسبب ما لاقوه من قريش من إيذاء وهجوم، بدأ الرسول يفكر في بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليبعدوا عن قريش وعن هجمات قريش، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بهيبتهم العدوان عن أنفسهم. ومن هؤلاء عليّ بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله وكثيرون سواهما.

أي البلاد يختار الرسول لراغبي الهجرة من المسلمين؟

هل يرسلهم إلى اليمن؟ لا، إن اليمن خاضعة للفرس، والفرس لا يعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له: أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتياني به.

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالجزيرة العربية؟ لا، فقد كان أهل الكتاب في نزاع ومنافسة، فهم لا يقبلون منافسًا جديدًا يقول بالله الذي يقولون به على غير ما يعتقدون.

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة؟ لا، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيها نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التي تربطهم بسكانها، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذي لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة.

إلى أين يرسلهم؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التي كان الرسول يعرف أن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد؟ نعم، لقد استقر الرأي على ذلك، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش.

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى، وهجرة الحبشة الثانية، وكانت الهجرة الأولى في السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلًا وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وأمرأته، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين.

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلًا وامرأة واحدة هي أم حبيبة بنت أبي سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش، وكان جعفر بن أبي طالب زعيم المهاجرين في هذه المرة، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله، كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين، وحب الوطن طبيعة في

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

الإنسان والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن، وباسم حب الوطن، الذي -فيما نظن- نسج الأسباب وهيأ الحجج، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ، ولذلك -كما يقول ابن هشام- لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوارٍ أو مستخفيًا، أما باقي مهاجري الحبشة الذين لم يخضعوا للتفاؤل، أو الذين آثروا البقاء في مغتربهم حتى تعلو كلمة الله، فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة.

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن اختيار المسلمين الحبشة سببه استعداد النجاشي لإكرامهم، وأمنهم على نفوسهم ودينهم في مغتربهم، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحرمهم هذا الملجأ، فاختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وأرسلتهما إلى النجاشي، وكان لعمرو بن العاص جاه في الحبشة وفي بلاط النجاشي، وأرسلت مع البعثة مجموعة كبيرة من الهدايا للنجاشي وبطارقته، وأذاعت أن المسلمين يقولون في عيسى وفي أمه قولًا عظيمًا، فعقد النجاشي مجلسًا استمع فيه لرأي جعفر بن أبي طالب في هذه التهم، وقد نجح جعفر في عرض الفكر الإسلامي مما جعل النجاشي يقول: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك، وفي العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين في سفينتين وأحضرهم إلى المدينة، وكان ذلك عقب استسلام خيبر، ويروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبي طالب، ما أدرى بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[46] .

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذي أشرنا إليه فيما سبق، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل في جوارٍ ومن دخل مستخفيًا، وكان من عادة العرب أن من دخل في جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولًا عنه وعن حمايته، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وهتكًا لحرمته[47]، وقد دخل عثمان بن مظعون -عقب عودته من الحبشة ومعرفته أن المسلمين لا يزالون يسلمون العذاب- في جوار الوليد بن المغيرة، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان، فخجل من ذلك وقال: والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبى لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك. قال: يا ابن أخي، لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره: قال المغيرة: فانطلق بنا إلى الكعبة فأردد على جواري علانية كما أجرتك علانية: فانطلقا حتى أتيا الكعبة، فقال الوليد: هذا عثمان جاء يرد على جواري. قال عثمان: صدق، قد وجدته وفيًا كريم الجوار، ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره.

ومما يروى أيضًا عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضر ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسول ولا يطيق له دفعًا استأذن الرسول في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر وسار يومًا أو يومين فلقيه ابن الدغنة وهو أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد في قومه فسأل: إلى أين يا أبا بكر؟ فأجاب: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي. قال ابن الدغنة: ولم؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدم؟ ارجع وأنت في جواري. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير. ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أبي بكر. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، وكان رجلًا رقيقًا إذا صلى خشع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء في إعجاب ظاهر، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلي

[46] هذا العرض هو أدق ما استطعنا فهمه من الروايات المختلفة. انظر صحيح البخاري وابن هشام.
[47] انظر مدى اهتمام العرب بحماية المستجير في العقد الفريد لابن عبد ربه جـ1 ص159 وما بعدها.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

وأن يقرأ القرآن داخل داره، فكلمه ابن الدغنة في ذلك: فأجابه أبو بكر: أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فاردد علي جواري. ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد[48].

العدوان على الرسول:

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام، وفي هذه المرحلة تعرض الرسول نفسه للهجوم والإيذاء، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشًا وتوقعت أن يبشر المسلمون في كل النواحي داعين إلى دينهم، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه أو لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة.

واتبعوا في إغراء الرسول العروض المالية السخية، ولكن محمدًا سخر منهم ومن أموالهم، فتجاوزوا المال إلى الملك، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكًا، ولكن محمدًا صاح بهم صيحة وضعت حدًّا لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه)[49].

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم والإيذاء وكانوا راغبين في إنزال الأذى مصرين على المقاومة، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب، ولذا تنوعت المقاومة فاتجه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن «مقاطعة بني هاشم» واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة، فأم جميل زوجة أبي لهب كانت تلقي الأقذار والأشواك أمام داره في غسق الليل لتؤذي الرسول عند خروجه مبكرًا، وكان أبو جهل يلقي فوقه القاذورات وهو في أثناء صلاته.

ولكن حماية أبي طالب ردت عن الرسول كثيرًا من الأذى، ووقفت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفي ما يصيبه من آلام، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كئيبًا، وكانت تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته.

وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله، ولمن آمن به كثيرين أهمهم عمه أبو لهب، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بني هاشم، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة، والحكم بن أبي العاص بن أمية وهم من بني عبد شمس، ومن بني عبد الدار النضر بن الحارث ومن بني أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود وأبو البختري العاص بن هشام، ومن بني مخزوم أبو جهل بن هشام، وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة، ومن بني سهم العاص بن وائل وابنه عمرو بن العاص، ومن بني جمح أمية بن خلف وأخوه أبي، وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول وللمسلمين، ويروي ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي فجاءه أبو جهل واعتدى عليه، وحاول نهيه عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده، فقال أبو جهل: يهددني محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر ناديًا مني؟ فأنزل الله فيه الآيات الكريمة: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) [العلق: 9-19] قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته الملائكة.

[48] ابن هشام جـ1 ص 231.
[49] ابن هشام جـ1 ص70.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونتائج ذلك:

وبينما كانت الدعوة بين إصرار الرسول وكفاح قريش، إذ دخلها في السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب[50] وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعز بهما الإسلام واشتد الأمل في انتصاره، وسنتكلم عن ظروف إسلام عمر فيه «فلسفة الدعوة الإسلامية» ولكنا هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوي عند قريش، فقد أدركت أن مسالة محمد ستؤدي إلى انتصار مبنه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدي إلى حرب داخلية، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبي جهل على الرسول، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه، وقصد أبا جهل وشجه وهدد بالانتقام من أي عدوان.

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها في أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بني عبد المطلب، فأخذوا يترددون على أبي طالب يطلبون إليه أن يُسكت ابن أخيه الذي يسب دينهم ويحقر آلهتهم، ولكن هذه الخطوة لم تأت بطائل، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبي طالب وصاحت فيه:

يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تسكته عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين[51].

ولم يفد التهديد بشيء فخطوا خطرة ثالثة هي أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمدًا ليقتلوه، وقالوا في ذلك لأبي طالب: إن عمارة أنهد فتى في قريش، وأجمل شباب العرب، فخذه، فلك عقله ونصره واتخذه ولدًا لك وأعطنا محمد. وسخر منهم أبو طالب، وقال: بئس ما تساومونني؛ أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟[52].

مقاطعة بني هاشم[53]:

وانتقل العداء خطوة جديدة، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه، سواء منهم من اتبع دينه أومن بقي على دين آبائه وأجداده؛ ولهذا عزمت قريش على مخاصمة بني هاشم جميعًا، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات اتجهوا في مقاومتهم لبني هاشم اتجاهًا سلبيًا ولكنه عنيف، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بني هاشم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم. ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ولا يزورون مرضاهم ولا يشيعون موتاهم، وأكرهوهم أن يلزموا الشَّعب وهو طريق بين جبلين... وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جدًا على بني هاشم، مسهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان، وقد استمرت حوالي ثلاث سنوات، وظهر فيها جليا صورة من صور التكافل داخل مجتمع لا يجتمع على دين، ولكن تعاونوا فيما بينهم، وخدموا بعضهم بعضا ، وتعاونوا فيها بكل

[50] ابن هشام 1: 326.
[51] ابن هشام جـ1 ص170.
[52] نفسه.
[53] ابن هشام ج1 ص 110.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

أشكال التعاون على مواجه الظلم، ولم تنقض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بني هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب فمزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم[54].

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول -صلى الله عليه وسلم- طيلة مدة بنى هاشم في الشعب، فكان يأمر الرسول أن ينام في فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى إلى هذا الفراش، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فأخذ مكان الرسول، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه.

ومما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد لهم وميثاق، ولحست اسم الله عز وجل، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شيء، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا، وقد أوحى الله لمحمد بذلك، فنقل ذلك إلى عمه أبي طالب، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد، ومع هذا اعتبروا ذلك سحرًا وزاد بغيهم وعدوانهم.

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا في نقض الصحيفة، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة، وأبو البختري العاص بن هشام والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله، وزمعة بن الأسود[55].

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم ويروي ابن هشام[56] أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحًا إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمة حكيم فتعلق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري وقال له: مالك وله؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه، فكيف تمنعه؟ فأبى أبو جهل، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة.

وأبو جهل الذي كان شديدًا في غيبة محمد، كان يهاب محمدًا ويحس بالرهبة أمامه، يروي ابن هشام أن رجلًا من إراش باع إبلاً له إلى أبي جهل بثمن مؤجل، فلما طالبه الإراشي بالثمن ماطله أبو جهل وذهب الإراشي إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم: يا معشر قريش، ما من رجل يؤديني دينًا على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب وقد غلبني على حقي؟ فرأى أحد الجالسين أن يهزأ برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان الرسول يجلس في ناحية بعيدة عن القوم، فقال للإراشي: أرأيت هذا الجالس هناك؟ إنه هو الذي يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبي جهل.

وصدق الإراشي كلام القرشي، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر، قال الرسول للرجل: انطلق معي إليه، وذهبا معًا تجاه منزل أبي جهل.

وأراد القريشيون أن يعرفوا ما سيتم عليه الأمر. فألحقوا بالرسول والإراشي رجلًا منهم لينقل لهم خبر ما سيتم من أحداث. وعاد الرجل ليقول لقريش كلامًا عجبًا، فقد دق الرسول باب أبي جهل ورد أبو جهل سائلًا من الذي يدق الباب؟ فقال الرسول: أنا محمد اخرج إليَّ فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه، وكأن ما في وجهه قطرة من دم، فقال له الرسول: أعط هذا الرجل حقه. قال أبو جهل: نعم في التو والساعة، ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل للإراشي.

---

[54] ابن هشام 1: 231 وابن القيم 2: 46.

[55] ابن عبد البر: الدر: مقتبسات من ص57- ص60.

[56] ابن هشام: جـ2 ص5.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وسرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة، فقال له المشركون: ويحك ماذا حدث لك؟ قال: ويحكم أنتم. والله ما هو إلا أن ضرب بابي وسمعت صوته حتى ملئت رعبًا، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قوه هائلة أرعبتني، وأحسست أني لو رفضت لهلكت. فعجب القوم من شأن أبي جهل وشأن محمد[57].

المناقشة:

- كيف واجه المسلمون التحديات في مكة؟
- صف كيفية مواجهة الأزمات مسترشدا بقصة الحصار في شعب أبي طالب؟

وفاة أبي طالب وخديجة:

وفي السنة العاشرة للدعوة فقد الرسول أعظم اثنين ساعداه وكانا له قوة وملاذًا في نضاله لنشر الإسلام، هما أبو طالب وخديجة، وكانت خديجة أول من أسلم من النساء، وكانت تشد عضد الرسول بقوة شخصيتها وبمالها وجاهها وحسن معاملتها، أما أبو طالب فقد كان درعًا يقي الرسول ويحميه بقوة وصلابة، ومما أثر عنه قوله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وقد مات أبو طالب وله سبع وثمانون سنة، وأغلب المؤرخين يرون أنه مات دون أن يدخل الإسلام، ولكن أُثر عن العباس أنه سمع أبا طالب وهو على فراش الموت يقول شعرًا جاء فيه:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا

ومثل هذا الشعر يجعل بعض الباحثين يرى أن أبا طالب دخل في دين محمد وإن لم يعلن ذلك. وكانت المدة بين موت أبي طالب وخديجة ثلاثة أيام فقط كما ذكر ذلك ابن القيم[58].

حالة الرسول بعد أبي طالب وخديجة:

ويموت أبي طالب ومن بعده خديجة تعرض الرسول لأهوال جسام من قريش، يقول ابن إسحق[59]: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، وكان أشد قريش عداء للرسول أبو لهب عمه، والحكم بن العاص، وعقبة ابن أبي معيط، فإنهم كانوا جيران الرسول وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من قاذورات.

وكانت زوجة أبي لهب أكبر عون لزوجها في إيذاء الرسول ووضع الأشواك ليلًا على بابه حتى تؤذية إذا خرج مبكرًا للصلاة كعادته، وقد ذكر القرآن الكريم قصتها في سورة خاصة هي سورة المسد (وقد سبق إيرادها).

وكثيرًا ما كانوا يضعون القاذورات عليه وهو يصلي في المسجد، وقد خنقه بعضهم مرة، وأوشكوا على قتله، لولا أن دخل أبو بكر وصاح فيهم وهو يخلصه: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ) [غافر: 12].

وكان الرسول، يعلم أصحابه مرة في المسجد، فاغتاظت قريش وأوسعوهم ضربًا وإيذاء، وكان نصيب الرسول وأبي بكر من هذا الضرب شديدًا قاسيًا.

[57] ابن هشام: جـ2 ص 27- 28.
[58] زاد المعاد جـ2 ص 46.
[59] ابن هشام 1: 160.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب:

دعوة أهل الطائف:

أدرك الرسول أن لا مقام له بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة، وبعد إسراف المشركين في إيذائه إسرافًا بعيدًا عن الكرامة والإنسانية، وبعيدًا عن الخلق الكريم، فوضع خطته لنشر الإسلام خارج مكة، لعله يجد مركزًا آخر يطيب له المقام فيه، فبدأ بزيارة بعض القبائل وعرض نفسه ومبادئ الدين الجديد على أهلها، وطالما لقى الرسول عناء في هذه الرحلة أيضًا، وطالما سمع أهل هذه البلاد يقولون: لو كان في دعوته خير لتقبلها أهله، ومن أشق المواقف التي تعرض لها الرسول ومسه فيها الأذى ما يذكره التاريخ من أنه -صلى الله عليه وسلم- اتجه إلى الطائف ودعا فريقًا من أشرافها[60] إلى وحدانية الله؛ ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يردوه ردًا كريمًا، فقد كانت هناك علاقات ود وجوار بين أمل الطائف وبين قريش، وكان كثير من أغنياء قريش يمتلكون حدائق بالطائف، وكانت مكة موطن الكعبة حيث يفد حجاج الطائف كل عام فيجدون من قريش كل ترحيب وتكريم، ولهذا تقرب أهل الطائف لقريش بإيذاء محمد، فأغروا به أحداثهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة[61]، ولكن الرسول لم ييأس وسط هذه الأزمة القاسية وأخذ يهتف: رباه، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي[62].

وفي الطائف التي وصلها الرسول بعد جهد طويل قابل -عليه السلام- جماعات الساخرين والمتهجمين الذين أشرنا إليهم، ثم كان هدفًا للسفهاء والصبية الذين أمطروه بوابل من الحجارة ووابل من سقط القول وفحشه، وكان النبي الكريم يتوارى من أذاهم وعدوانهم، وتراجع الصبية بعد أن غادر الرسول منازل الطائف، وكان العناء قد مس الرسول فلجأ إلى حائط (حديقة) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة[63] وألقى بكوعه على كرة صغيرة بالسور، ورآه غلام اسمه عداس وهو في هذه الحال، فأشفق عليه، وحمل له بعض أعناب من الحديقة، فتقبلها الرسول، ودعا له وحادثه ودعاه إلى الإسلام فدخل عداس الإسلام.

دعوة الحجيج:

اتجه الرسول بعد الطائف إلى دعوة الحجيج، فأخذ يقابل وفود العرب القادمة من هنا ومن هناك. ويعرض نفسه عليهم، ويشرح لهم دعوته ومبادئ الدين الجديد وكانت هذه اللقاءات تتم بمجنة وعكاظ ومنى، وخدمت قريش الدعوة من حيث لا تدري، إذ أرسلت وفودها إلى جماعات الحجيج تحذرهم من دعوة محمد، وترميه بالجنون والسحر وغيرها من الصفات الذميمة، وتدخل قريش هذا جعل جماعات الحجيج يتوقون إلى رؤية محمد ليشاهدوا بأنفسهم صاحب هذه الدعوة الجديدة، وليحققوا مقدار صدق قريش فيما تذيع، وهكذا بدل أن يسعى محمد للناس أصبح الناس يسعون إليه سرًّا وعلانية، لقد كانوا يسعون ليروا المجنون فإذا بهم يجدونه أرشد الناس عقلًا، وليروا الساحر فإذا به بعيد عن السحر والشعوذة، وسمع الناس وبخاصة أهل

[60] يقول ابن هشام (2: 285) إنهم إخوة ثلاثة من ثقيف هم عبد يا ليل بن عمرو ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو.
[61] ابن هشام 1: 260.
[62] ابن القيم: زاد المعاد 2: 46.
[63] ابن هشام 2: 285.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

يثرب القرآن واستمعوا إلى آراء محمد ودعوته ودينه وفلسفته فأحبوه، وبدأ الأمل يظهر، وبدأت الدعوة تنتشر، وكان إعجاز القرآن وفلسفة الدعوة أهم الأسس التي جذبت الناس لدين الإسلام[64].

رحلة الإسراء والمعراج:

في هذا التوقيت العصيب، جاءت رحلة الإسراء والمعراج، وقد ورد بشأنها كلام كثير، وما صح منه، وما يجب أن يعتقده المسلم -بحسب الإمام الحافظ ابن كثير-[65]ثلاثة أمور:

- أن الرسول قد أسرى الله به من مكة إلى بيت المقدس وقد صلى ركعتين هناك.
- أنه صعد إلى السماء واقترب من عرش الرحمن.
- أنه تم تكليفه ومن وراءه أمته بإقامة الصلاة، وأنها كانت خمسين وتم تخفيفها إلى خمس في اليوم والليلة.

وقد حاول أهل الكفر في مكة أن يجعلوا من خبر هذه الرحلة مثار فتنة بين المسلمين، وخاصة أبو بكر، فكان الرد مفحم منه، إذ قال: لو قال فقد صدق، والله إنه لأصدقه في أعجب من ذلك، أنه يأتيه الخبر من السماء في أي ساعة من الليل أو النهار[66].

المناقشة:

- لماذا وصف هذا العام بعام الحزن؟ وما تأثيره على الدعوة؟
- لماذا كانت رحلة الإسراء والمعراج؟ وما هي أهم معالم هذه الرحلة؟

الإسلام يدخل يثرب:

في معرض ما كان يقوم به رسول الله من عرض الإسلام على قوافل الحج، توجه لمجموعة قادمة من يثرب، ويختلف أهل يثرب عمن سواهم، وذلك أنهم سمعوا من اليهود القاطنين بالمدينة عن قرب ظهور نبي، وأن هذا النبي سوف ينتصر على العرب ويملك أمرهم، فلما سمعوا ما يدعوا له رسول الله اجتمعوا فيما بينهم، وقالوا لا يسبقكم اليهود إليه، فآمنوا به، وقالوا لرسول الله أن قومهم في حال تنازع دائم، ولعل الله يجمعهم بك، فعادوا لمدينتهم يدعون الناس للإسلام، واجتهدوا حتى دخلت الدعوة كثير من البيوت، فعادوا في العام التالي لكي يبايعوا رسول الله، وكان هذا في العام الثاني عشر من نزول الوحي، وقد جاء وفد منهم من اثنى عشر رجلا وامرأة هي عفراء بنت ثعلبة، فكانت مشاركة المرأة منذ الخطوة الأولى لنصرة دين الله في يثرب، ولتمثل قومها مع من أسلم من الرجال.

وقصة هذه البيعة أن اثني عشر رجلًا ومعهم المرأة السابقة قدموا على رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وبايعوه، قال عبادة بن الصامت كنت فيمن حضر بيعة العقبة، وقد بايعنا الرسول على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا؛ ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصاه في معروف[67].

---

[64] ابن هشام جـ1 ص 363.
[65] يراجع في ذلك تفسير ابن كثير
[66] ابن هشام ج1 ص246.
[67] ابن هشام 1: 268.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وقد أرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في الصلاة، وقد نشط مصعب في الدعوة للإسلام في يثرب، حتى دخله القادة والرؤساء[68].

في السنة الثالثة عشرة للبعثة تمت بيعة العقبة الثانية، وحديث ذلك أن ثلاثة وسبعين شخصًا من يثرب قدموا إلى مكة وقد عزموا على أن يدعوا الرسول للهجرة إلى يثرب ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم.

وقد اجتمع هؤلاء بالرسول عند العقبة أيضًا. وكان مع الرسول عمه العباس وكان لم يعلن إسلامه بعد. فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم قال:

يا معشر الخزرج إن محمدًا منا كما علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه من خالفه فأنتم وما تحملتم في ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه.

قال زعيم وفد يثرب: قد سمعنا ما قلت يا عباس. فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم الرسول وتلا آيات من القرآن الكريم ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم. فبايعوه على ذلك وأضافوا أنهم يبايعونه على هلاك الأموال، وقتل الأشراف، والاحتمال في كل الأحوال[69].

ويروى عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء نص البيعة قال: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا وإيثاره علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم[70].

هجرة المسلمين إلى يثرب:

عندما ظهرت تباشير النجاح في يثرب أمر الرسول أتباعه بالهجرة إليها فرارًا بدينهم من ظلم قريش، والتجاء إلى المسلمين الجدد بهذه المدينة، وقد ندفع المسلمون عقب ذلك مهاجرين إلى المدينة إذ كانت الهجرة إليها أيسر بكثير من الهجرة للحبشة، كانت هجرة لأرض عربية ولقوم مسلمين، ولم يكن هناك بحر في طريقهم.

وكانت الهجرة ليثرب، سرًّا غالبًا وقد هاجر طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان الرومي معًا، وكان صهيب ذا مال، فاتبعته قريش ليقتلوه وليأخذوا ماله، فلما أشرفوا عليه ونظر منهم ونظروا منه قال لهم: قد تعلمون أني من أرماكم رجلًا ووالله لا تصلون إلي أو يموت منكم عدد كبير، فاتركوني وشأني. قالوا: فاترك مالك. فألقى إليهم ما كان معه من مال: ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه، وأعطاهم دليلًا على ذلك، فانصرفوا عنه إلى مكة، ونزلت فيه الآية الكريمة: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) [البقرة: 207].

وقد حاولت قريش بمختلف الوسائل أن تمنع من استطاعت منعه من الهجرة، وبلغت في ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته، وكانت تحبس من تستطيع حبسه ممن تخشى هربه؛ ورغم هذا أفلت

68 المرجع السابق 1: 269.
69 ابن هشام جـ1 ص 275، 277.
70 المرجع السابق س 311.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

كثيرون من قريشا ودخلوا يثرب، وقد هاجر عمر بن الخطاب علانية بعد أن تحدى قريشًا وصرخ فيهم قائلًا: من أراد أن تثكله أمه. أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي... فلم يتبعه أحد.[71]

وكان أبو بكر يستأذن في الهجرة إلى يثرب فيقول له الرسول: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا، أما علي فيبدو أنه لم يخطر له أن يهاجر ويدع الرسول مكة.

المناقشة:

- لماذا توجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لخارج قريش؟ وما صور ذلك؟
- تعددت صور حماية رسول الله وصحابته للمستضعفين من المسلمين، اشرح بعض صور ذلك.
- لماذا لم يقُدْ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جميع المسلمين في الهجرة إلى المدينة؟ دلل على إجابتك؟

الهجرة

المؤامرة والإذن للرسول بالهجرة إلى يثرب:

انزعجت قريش من هجرة المسلمين إلى يثرب، وخافت أن ينضم محمد إلى أتباعه بها وأن يقيم له مركزا حصينًا هناك، وفي هذه الحالة لا تكون المسألة مسألة دين فقط، بل ستكون مسألة اقتصادية أيضًا، ربما ترتب عليها ضياع التجارة وخراب البيوت، فيثرب تقع في الطريق بين مكة والشام وإذا كانت معادية لقريش تعرضت تجارة قريش إلى الضياع والخسران، ومن هنا وجدوا أنه لا مناص من أن يعملوا شيئًا هامًّا ويقومون بخطوة حاسمة، لعلهم يقضون على هذا الدين الذي أصبح خطرًا على أديانهم وعلى أرزاقهم.

ماذا يفعلون؟

اجتمعوا وتشاوروا في الأمر، وقص الله قصتهم في كلامه العزيز:

قال الله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: 30].

وكان أمام قريش أن يسلكوا حلًّا من هذه الحلول الثلاثة التي وردت في الآية: هل يحبسون محمدًا؟ لا، فإن أهله لا بد سيقاتلون دونه ويطلقونه.

هل يخرجونه من ديارهم فيذهب بعيدًا عنهم؟ لا، فلا بد أنه سيتجه إلى يثرب وفي هذا قضاء على تجارتهم وثرواتهم.

لم يبق إلا أن يقتلوه. ولكن كيف يقتلونه وأهله سيقتلون من يقتله؟ لقد وجد لهم أبو جهل لذلك حلًّا هو أن يختاروا من كل قبيلة شابًّا جلدًا، وأن يشترك هؤلاء الشبان في قتله، فتتوزع دماؤه بين العرب فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له من الجميع، ولا يجدون بدًّا من قبول الدية[72].

ذلك رأي وجدوه سليمًا، فأخذوا يعدون له العدة، وفي إحدى الليالي عرفوا أن محمدًا آوى لبيته، فأطلقوا شبانهم ليحيطوا بالبيت وينتظروا حتى يهدأ الناس فينقضوا عليه ويقتلوه.

وبلغ الله الرسول حديث القوم وتآمرهم، وأذن له بالهجرة إلى يثرب[73]، وكان الرسول يحس بكثير من الوحشة بمكة بعد هجرة أصحابه، ولذلك سُر الرسول بهذا الإذن، وأخبر به أبا بكر، وطلب أبو بكر من الرسول أن يأذن له في أن يصحبه في هذه الرحلة التاريخية فأذن له، وحينئذ أخذ أبو بكر يعد العدة للرحلة، وأمر الرسول عليًّا أن يبيت في مكانه ليوهم القوم أنه في فراشه، ثم ليرد في اليوم التالي التي كانت عند

[71] الرياض النضرة في مناقب العشرة جـ1 ص 259.
[72] ابن هشام 1: 391 وابن القيم 2: 52.
[73] ابن هشام جـ 2 ص 2.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

الرسول لأصحابها[74] ثم نثر الرسول على الشبان ترابًا من يده وقال: شاهت الوجوه، فعرتهم غشاوة لحظة خرج فيها الرسول دون أن يروه، وصدق الله العظيم الذي يقول: فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

الرحلة من مكة إلى يثرب:

سبق أن قلنا إن أبا بكر أعد العدة للقيام بهذه الرحلة التاريخية، وكان أبو بكر كالعهد به كريمًا وفيًّا مخلصًا، فسخر للهجرة كل شيء يملكه أو يشرف عليه.

أعد راحلتين ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط ليركبهما الرجلان العظيمان في رحلتهما البعيدة، وخاطر أبو بكر بنفسه فصحب الرسول مع علمه أن قريشًا ستتبعهما وتهتم بالحصول عليهما، وأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما تقوله قريش عن الرسول ورفيقه نهارًا ثم يأتيهما ليلًا بما يكون في ذلك من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى الغنم نهاره ثم يذهب بالغنم ليلًا إلى جبل ثور حيث سيختفي الرسول والصديق ليحتلب لهما ما يحتاجانه من اللبن، وكلف ابنته أسماء أن تأتيهما كل مساء بما يحتاجان له من الطعام والشراب، وحمل أبو بكر ماله كله ليكون عونًا للرفيقين في هذه الرحلة النائية[75].

أما سير الرحلة فقد وصفه ابن هشام بقوله: جاء الرسول متخفيًا إلى دار أبي بكر، ثم خرجا من خوخة (فتحة صغيرة) في ظهر بيته، ولما غادرا مكة وقف الرسول وتطلع إليها وقال: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت[76]. واتجه الرسول وصاحبه إلى جبل ثور بأسفل مكة، وعمدا إلى غار في ذلك الجبل فدخلاه واختفيا فيه.

وجبل ثور في موقع يناسب حال الاختفاء، ومن ناحية أخرى يوجد في سفحه سهل به بعض المراعي مما يتيح لعامر بن فهيرة أن يرعى غنم أبي بكر غير بعيد عن الغار حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلًا يحمل ألبان الأغنام للرسول وصاحبه.

هذا ما كان من أمر محمد وأبي بكر، أما كفار قريش فسرعان ما عرفوا حيلة محمد، وأدركوا أنه فر من مكة واعتقدوا أنه أخذ طريقه إلى يثرب، فأعلنوا أن من يأتيهم به حيًّا أو ميتًا له مكافأة قدرها مائة ناقة، وأسفر العداء، وانتشر شبان قريش في الطريق من مكة إلى المدينة يحاولون، الظفر بالجائزة وبشرف القبض على عدوهم اللدود، ووصل بعضهم في البحث إلى الغار حيث يختفي محمد وصاحبه، وصاروا بحيث لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآهما، وقد أحسن أبو بكر بالخوف عند ذلك، لا على نفسه، ولكن على صاحبه وعلى الحق، ولكن الرسول طمأنه وهدأ خوفه وقال له: ما ظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما؟ وقد حكى القرآن الكريم ذلك في الآية الكريمة، (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: 40].

ويروى أن العنكبوت نسج خيوطه على فتحتي الغار، وباض اليمام، وكأن الله أراد أن يسخر من القوم فسخر أضعف الأشياء لتحمي محمدًا منهم.

وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى يثرب، بدأ الرسول يخرج من الغار مع صاحبه، وكان عبد الله بن أريقط قد قدم في الموعد المحدد، فركبا وسار بهما عبد الله في طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر.

ويروى أن أبا بكر في رحلة الهجرة كان يسبق الرسول مرة ويتبعه مرة أخرى: فسأله الرسول عن ذلك فقال. يا رسول الله، أذكر الترصد فأسبقك، وأذكر الطلب فأتبعك.[77]

---

[74] ابن هشام جـ2 ص 3.
[75] ابن هشام جـ2، ص 4 وابن القيم جـ2 ص 53.
[76] رواه الترمذي والنسائي. انظر كذلك زاد المعاد جـ1 ص 8.
[77] الرياض النضرة جـ1 ص 90.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

يثرب تستقبل الرسول:

أما أهل يثرب فكانوا قد عرفوا أن الرسول قد خرج متجهًا إليهم، وأخذوا ينتظرون، ولم يظنوا أنه عرج على الغار، فلما مرت الفترة اللازمة من الوقت للرحلة من مكة إلى يثرب ولم يصل الرسول؛ بدأ على مسلمي يثرب شيء من القلق والخوف، وأخذوا يصعدون أعلى الأمكنة المحيطة بيثرب وينظرون لعلهم يرون ركب الرسول، وظلوا كذلك حتى أطل عليهم وهم في أشد الشوق واللهفة.

ويروي البخاري بسنده إلى البراء بن عازب قال: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله. وروى أبو داود عن أنس قال: لما قدم النبي المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحًا بقدومه وأشرقت المدينة بحلوله فيها وسَري السرور إلى القلوب.

وعنه أيضًا قال: شهدت يوم دخول النبي المدينة فلم أر يومًا أحسن منه، ولقد صعدت ذوات الخدور على الأجاجير (الأسطح) عند قدومه يقلن تهنئة له حال دخوله:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع [78]

وكان دخول الرسول يثرب في الثاني عشر من ربيع الأول.[79]

وينبغي أن نذكر أن الرسول نزل قُباء قبل أن يدخل يثرب، وبقي فيها أربعة أيام، وأسس بها مسجد قباء الشهير[80]، وقد لحق علي بن أبي طالب بالرسول في قباء بعد أن رد الودائع إلى أصحابها ودخل على يثرب في موكب الرسول[81].

وأقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقباء في محلة بني عمرو بن عوف من يوم الاثنين وخرج من بين أظهرهم يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم فصلاها في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة، في رجال من بني سالم بن عوف فأمسكوا بزمام الناقة وقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها، فسارت بعد أن خلوا سبيلها وانطلقت، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في المكان الذي به مسجده -صلى الله عليه وسلم- وهو يومئذ ملك لغلامين يتيمين من بني النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حجر معاذ بن عفراء، فلما بركت الناقة ورسول الله عليها لم ينزل، ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به. ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تلحلحت وأرزمت (أحدثت صوتًا) ووضعت جرانها (مقدم عنقها) على الأرض، نزل عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاحتمل أبو أيوب الأنصاري رَحْلَ الرسول إلى بيته، وبقي الرسول في بيت أبي أيوب سبعة أشهر بنى خلالها مسجده في المكان الذي بركت فيه الناقة. كما بنى حول المسجد حجرة لزوجته سودة، ثم حجرة أخرى تزوج فيها الرسول من عائشة.

ويروى أن الرسول سأل عن مالك الأرض التي بركت فيها الناقة، فقال له معاذ بن عفراء: هى يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان في حجري، وسأعطيهما بدلها، وقد ظل الرسول يتابع هذا الأمر حتى تأكد من وصول البدل المناسب للغلامين[82] وأصبحت يثرب من يوم الهجرة تعرف بالمدينة.[83]

---

[78] هذا هو الشائع حول هذه الأبيات، ويروي ابن القيم أن أهل المدينة استقبلوا الرسول بهذه الأبيات عند عودته من غزوة تبوك لأن ثنيات الوداع تقع شمال المدينة (انظر زاد المعاد 3: 13) وذوق الشعر أميل لوقوعها متصلة بالهجرة.

[79] ابن قتيبة: المعارف ص 75.

[80] في زاد المعاد لابن القيم أن الرسول بقي في قباء أربعة عشر يومًا (انظر حـ1 ص 25) وانظر ابن هشام 2: 11.

[81] ابن هشام2: 10.

[82] ابن هشام جـ 2 ص 103.

[83] ابن خلدون: المقدمة ص 283.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

دروس من الهجرة:

في دراسة السيرة نماذج رائعة جديرة بأن يُقتدى بها وننتفع بما فيها من خلق طيب، فالانتفاع بما في التاريخ من أمثلة ممتازة هدف مهم من أهداف دراسة هذه المادة، والهجرة حدث عالمي لم يقلل من أهميته أحد سواء من المسلمين ولا من أعداء الإسلام، وبالهجرة صور بديعة أخلاقية جديرة أن نقف عندها وقفة تأمل، لنرى ألوان زاهية من الإيثار والتضحية والوفاء.

في القمة من الدروس التي نقتبسها من الهجرة عظمة محمد التي تجلت في قوة عزيمته وصبره على الشدائد دون أن يتطرق اليأس إلى قلبه حتى في أحلك الأوقات، وقد ظل يكافح، فنجح كثيرًا وناله أحيانًا بعض الفشل، ولكنه انتفع بالنجاح وبالفشل، انتفع بالنجاح بتنميته والحرص عليه، وانتفع بالفشل بأن حاول جاهدًا ليجد طريقًا آخر يحقق خلاله ما فشل في تحقيقه من قبل.

وبالهجرة النبوية إلى المدينة اختلفت موازين القوى، وبدأ عهد جديد للدعوة الإسلامية، سواء على مستوى التشريع، أو على مستوى السلم والحرب، أو على مستوى بناء المجتمع الذي يتمثل قيم الإسلام، أو على مستوى الدعوة الإسلامية العالمية، والصراع مع كل قوى الظلم في العالم. ليبدأ العهد المدني من السيرة النبوية المشرفة.

المناقشة:

- لماذا لم يتدخل رب العزة ونقل رسوله للمدينة كما فعل في رحلة الإسراء؟
- لماذا حرص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على رد الأمانات عند هجرته؟ وما العبرة من ذلك؟
- ما هي أهم الدروس من الهجرة النبوية؟

المراجع:

- ابن هشام: السيرة النبوية لابن هشام
- ابن القيم: زاد المعاد
- أحمد شلبي: الموسوعة التاريخية، ج1
- محمد الصوياني: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ج1- ج2

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Corp. Canada

هذا الكتاب

استعراض لقصص الأنبياء (آدم- نوح- هود- صالح) عليهم السلام:

- تأكيد الوحدة الرابطة بين الأنبياء جميعاً من آدم عليه السلام إلى محمد .
- استعراض ما مر به الأنبياء الأربعة عليهم السلام من أحداث ومواقف.
- استنباط الدروس والعبر من قصص الأنبياء كما أمرنا ربنا سبحانه بذلك.

كما أن في هذا الكتاب شرح للمرحلة المكية في حياة النبي :

- عرض أحداث المرحلة المكية وأثرها في قيام الدولة الإسلامية وتكوين رجالها.
- استنباط الدروس والعبر المستقاة من أحداث هذه المرحلة لنتعلم منها ونستفيد.
- التركيز على مواقف فارقة في مسيرة الدعوة الإسلامية ودراستها.

كل ما سبق وفق:

منهج علمي موثق ومبني على المعلومة الثابتة، طريقة تناول سهلة وميسرة ومعاصرة، أسلوب عرض شيق جذاب.

إنه تعرض لقصص أربعة من الأنبياء عليهم السلام، واستعراض للمرحلة المكية في حياة الإسلام مع إبرازما بذله الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من حوله من مواقف وتضحيات ليكون لنا من قصص أنبيائنا وسيرة نبينا وأصحابه نبراساً ينير طريقنا.

التعريف بالمؤلف

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب جامعة عين شمس بالقاهرة، عضو لجنة إحياء تراث الفكر الإسلامي المعاصر - مكتبة الإسكندرية (مصر)، ليسانس الشريعة من كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر ، الدبلوم العالي في الدراسات الإسلامية - معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة، دبلوم عال في التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية، ليسانس تاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، نائب رئيس الموقع ومدير العلاقات الخارجية بموقع بيليواسلام - الموقع الأكاديمي لشبكة إسلام أون لاين.نت، مدير مشروع بانوراما التاريخ الإسلامي في مركز دراسات العالم التركي

Caulfield Cres., Mississauga, ON L5M 6J7 - Canada 3054
Tel . : +1 (647)633-3491
E-mail : info@ayaatacademy.ca
ميساساجا - أونتاريو - كندا
www.ayaatacademy.ca
أكاديمية آيات
Ayaat Academy